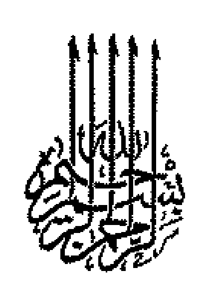


للحارث بن أسد المحاسبي ٢٤٣ هـ

تحقيق

محمد عبد القادر عطا

دار الاعتصام



دار الاعتصام

٨ شارع حسين حجازي ت ٣٥٤٦٠٣١/٣٥٥١٧٤٨ ص ب ٤٧٠ القاهرة

للطبع والنشر والتوزيع

فقه أعمال القلوب

تقديم بقلم : عبد القادر أحمد عطا

فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم :

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم وكان الإنسان قد أخلد إلى الأرض بكل همته ومشاعره ومواهبه التى كرمه الله من أجلها ، فعبد ما فى الأرض ، وعمل لزينة الأرض ، واستعبد لما فى الأرض وما على الأرض . وكانت الرسالة التى حققها الرسول صلى الله عليه وسلم هى : « رفع همة الإنسان من التسفل إلى التسامى ، أو من الزيف إلى الحقيقة » . فعلم الناس أن يتوجهوا بعباداتهم إلى الله ، وأن يعملوا فى عمران الأرض وأمور المعاش يبتغون بذلك وجهاً من وجوه رضوان الله ، فتوحد تحت لواء الإسلام كل الإنسان المسلم فى الباطن الذى يقوده القلب ، وإن كان فى ظاهره منقسماً إلى ظاهر وباطن ، ولكنه فى الحقيقة كان يعتصم بحركات القلب فى عمل العقيدة والعبادة القلبى ، وعمل الجوارح فى مظاهر العبادة وعمران الحياة على السواء .

ولقد حفل القرآن الكريم بالحث على ربط العمل بالقلب فى جميع الأعمال وتخليص القلب من كل النوايا إلا نية العمل لله دون طلب جزاء ولا شكر من أحد . وكانت عناية القرآن بهذا الأصل مرتبطة بتصفية العقيدة من شوائب الشرك الجلى والخفى ، فقال تعالى : « . . . **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** » . ويروى الحاكم النيسابورى أن هذه الآية نزلت حينما سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : يا رسول الله إنى أقف الموقف أريد وجه الله ، وأريد أن يرى موطنى ، يعنى : يريد الله بجهاده ، وفى الوقت نفسه يريد أن يعرف الناس شجاعته وشدة بلائه فى الحرب .

ومن هنا تقرر فى الإسلام أن تحديد الإرادة من العمل يجب أن يرتبط بالعمل ، فيرتبط القلب بالجوارح فى العمل ، وينقضى عمل الجوارح . ولكن عمل القلب يبقى حارساً أميناً على عقيدة المسلم أن تزيغ فيبطل العمل بعد انقضائه على وجه من وجوه الصحة الشرعية . أى أن تحديد إرادة القلب بالعمل يجب أن ينطلق من الإيمان بالوحدانية التى هى صميم الإسلام وصلبه وعموده ، وأن الثنائية فى الإرادة كما ظهرت من استفتاء الرجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هى صورة من صور الشرك الكثيرة ، يتعدى خطرها إلى نفس العقيدة ، فما الشرك إلا الوجه الصريح للرياء ، وما الرياء إلا هدم لأصل الإيمان بالله الواحد الأحد .

ولقد أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن علة الرياء فى القلب ودوافعه إنما هى طلب عزة المال والجاه فى الدنيا ، فقرر أن التمكين فى الأرض ، ورفعة الشأن والعزة ، أمور مضمونة لهذه الأمة ، ومضمون دوامها إذا انطلقت أعمالها من نبع الوحدانية فى العقيدة وفى مقاصد الأعمال ، ويروى فى هذا الصدد أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « بشر هذه الأمة بالثناء والرفعة فى الدين ، والتمكين فى الأرض ، والنصر ، فمن عمل عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة من نصيب » . ويؤكد هذا المعنى قول الله تعالى : « **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً** » . وما الإرادة إلا عمل قلبى خالص يمكن أن يواكب عمل الجوارح يوجهه نحو الحق أو نحو الضلال .

وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة الدوام لعمل القلب فى رواية أبى داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : « إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً ، وإن قاتلت مرائياً مكاثراً بعثك الله مرائياً مكاثراً » .

فالشرك إذن لا يقتصر على عبادة الوثن أو البشر مع الله ، وإنما ذاك شرك الظواهر ، وهناك شرك السرائر الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رواية محمود بن لبيد رواها عنه ابن خزيمة وابن ماجه والبيهقى بألفاظ متقاربة إذ قال : « أيها الناس : إياكم وشرك السرائر . قالوا :

يا رسول الله ، وما شرك السرائر ؟ قال : يقوم الرجل فيصلى ، فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه . فذلك شرك السرائر » .

ورغم ما قال بعض العلماء : من أن شرك الرياء شرك فى العمل لا فى العقيدة ، فإننا نرى أن شرك الرياء ينتهى إلى العجب بالأعمال ، والعجب يدمر العقيدة من أساسها إذ يرى المعجب بعمله المنة منه فى العمل ، واستقلاله به عن عون الله تعالى مما يجعل شرك الرياء ذريعة مباشرة لشرك العقيدة . ألا ترى أن المرائى الممعن فى الرياء يصل إلى حال تنعدم فيها عنده مشاعر العقيدة ووازعها ، فلا يخضع إلا لهوى نفسه ؟ وعابد الهوى أحط من الحيوان الأعجم كما قال تعالى : **« أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا »** .

ولم يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصورة المثلى للمؤمن المخلص البرىء من النفاق والرياء فقال فيما أخرجه ابن ماجه والبيهقى والحاكم عن عمر : « اليسير من الرياء شرك . . . إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يعرفوا . قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة » . والغبراء المظلمة : الفتنة العمياء .

هكذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم على مستوى مسئوليته العظمى فى تبليغ الرسالة ، وفى بيان مقاصد القرآن ، من فقه أعمال القلوب إلى جانب فقه أعمال الجوارح . فكما أن لأعمال الجوارح شروطاً للصحة والقبول فكذلك أعمال القلوب لها نفس الشروط فى الصحة والقبول . وكان صلى الله عليه وسلم فى قمة المستويات الفكرية العالمية حين صور مستقبل العالم الإسلامى حينما يسيطر الرياء القلبى على أعمال الناس الظاهرة بالجوارح ، فقال فيما أخرج الترمذى عن أبى هريرة : « يخرج فى آخر الزمان رجال يختلون (يسرقون) الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين : ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله عز وجل : أبى يغترون أم على يجترئون ؟ فبى حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم حيرانا » .

وهذه الصورة ذات دلالة واضحة على أن هناك مشقة فى الحفاظ على

القلوب من طوارق الرياء والنفاق ، وإن تسلل الرياء إليها أمر محتم إذا لم تكن هناك مذاكرة دائمة ، ومراقبة صارمة . وتفتيش دقيق في كل خفقة يخفقها القلب وفي كل خاطر يساوره .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم والجيل الأول من التابعين ، لا يفترون عن التذكر والتدبر ، ومحاسبة النفس ، وتفتيش القلب ، والرقابة عليه ، حتى بلغ من أمر حنظلة الأسدى أن شك في إيمانه حينما لاحظ أنه يكون في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم حاضر القلب ، حديد البصيرة ، فإذا انقلب إلى أهله ، ومارس حياته الخاصة نسي ما كان يحس به ويعانيه ، فشاور أبا بكر في هذا الأمر ، فأخبره أبو بكر أنه يجد مثل ما يجد . وعليهما أن يستفتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما ذهبا إليه طمأنهما إلى أنهما بريئان من النفاق ؛ ولكن « ساعة وساعة » : يعني : لابد من ترويح النفس بالمباح . حتى لا تقعد بصاحبها عن العمل .

لم يكن هناك انفصال إذن بين فقه أعمال القلوب وفقه أعمال الجوارح ، بل كانت الرابطة وثيقة بينهما ، والعناية بليغة بهما ، ولم يكن هناك فصام في شخصية الإنسان المسلم بحيث يكون قلبه في واد وجوارحه في واد آخر ، ولهذا لم تكن بالمسلمين حاجة إلى مزيد من الدراسات والتفاصيل حول أعمال القلوب ، لا سيما وأن الحياة لم تكن قد أصيبت بزحام المظاهر ، وظواهر الترف ، وتشابك المصالح وتعقدها ، وخفاء أعمال القلوب تبعاً لهذا التعقيد في وسائل العيش .

أى إنه لم تكن هناك أمية في فقه أعمال القلوب ولا في أعمال الجوارح في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يحتاج الأمر إلى ظهور طائفة تنفرد بدرس أعمال القلوب ، وطائفة بدرس أعمال الجوارح ، بل كان العلم فيهما مجتمعاً وصحيحاً ودقيقاً ، لا يحتاج إلى مزيد . والمتتبع للسنة النبوية يستطيع أن يعد الحالات التي عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم للاستفتاء في أعمال القلوب ، وأغلبها كانت في خوالج تساور قلوب الغزاة والمجاهدين إذ هو الموقف الذى أبيح فيه ما لا يباح في غيره ، كالتبختر بين الصفوف مثلا .

وإلى جانب هذه الدقة البالغة فى تحديد مشاعر القلوب عند العمل حتى تتفق مع مقصد الشريعة من العمل ، كانت هناك دقة بالغة كذلك فى الجانب الشكلى للشريعة ، ورأسها قوة التمسك بالسنة ، وكراهة البدعة ، حتى لقد قبض عمر بن الخطاب على رافع عقب الصلاة ، وذهب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه سمعه يقرأ سورة الفرقان على حرف لم يعرفه عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخشية أن تكون البدعة قد أطلت رأسها ، لا سيما وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحذر من البدعة وهو فى حال من الإشفاق لا ينساها أحد من أهل عصره رآها أو بلغته ، حتى بلغتنا فيما أخرجه مسلم عن جابر أنه كان يعلو صوته ، وتحمر عيناه، ويشتد غضبه ، كأنه منذر جيش وهو يقول : « أما بعد . . فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، أنا أولى بكل مؤمن » .

ونظراً لارتباط البدعة بعبادة الهوى ، وارتباط عبادة الهوى بالنفس ثم بالقلب ،فقد ارتبطت البدعة بفساد العقيدة فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ما تحت ظل السماء من إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع » . وما ذاك إلا لأن كل بدعة إنما هى داء يقضى على سنة من السنن ، حتى لا تبقى إلا البدع التى أطلق العلماء على أصحابها اسم (أهل الأهواء) .

بعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم :

ومن دلائل نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ودلائل عظمة الأمية فى شخصه : أنه كان شامل النظرة ، بعيد مدى الرؤية للأحداث ، صادق التقدير ، حينما بدأ عما ستكون عليه الأمة من بعده ، وقد مرت بنا صورة المجتمع المرائى بعد عصره كما صورها ، وصدق فيها ، والآن نراه يصور مجتمع المبتدعين الذين يقودهم الهوى الباطن من بعده فقال فيما أخرجه أبو داود وأحمد عن معاوية : « ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ؛ اثنتان وسبعون منها فى النار ، وواحدة فى الجنة ، وهى ما عليه الجماعة ،

وإنه سيخرج فى أمتى أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله » .

ولم يحدث فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم خطأ فى تطبيق السنة ، أو جنوح نحو البدعة إلا فى حالات نادرة كانت عن حسن نية أهمها : ما أراد عثمان بن مظعون أن ينتهجه هو وعدد من أصحابه إذ عزموا على أن يحيوا مذاكيرهم ، وينقطعوا للعبادة . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم تداركهم ، وبين لهم أنه ينام ويقوم ، ويصوم ويفطر ، ويتزوج النساء ، وختم بيانه بقوله : « فمن رغب عن سنتى فليس منى » ، ومنها ما حدث من عبد الله بن عمرو بن العاص من ترجيح جانب العبادة وتغليبها على شئون الحياة ، حتى عدل الرسول صلى الله عليه وسلم سلوكه ، وكبح جموحه بعد نقاش بين المعلم الأعظم والتلميذ الصالح .

أما بعد الرسول صلى الله عليه وسلم فقد عاد الناس إلى الرغبة فى الانقطاع للعبادة ، وابتدعوا طرائق ووسائل للأذكار الجماعية فى المساجد عقب الصلوات وقد شهد الحالتين عبد الله بن مسعود ، وقام على الطائفة الأولى قائلا : « فمن للجهاد ، ومن للثغور ، وما أنا ببارح حتى تخرجوا » ، وقال للآخرين : « إن فعلتم فقد سبقتم سبقاً بعيداً ، أو فقتم أصحاب محمد علماً » . وقضى على بذور الفتنة قضاء مبرماً .

ولكن قوة الأهواء كانت تابعة لقوة أهواء الحكام فى الخروج عن السمت النبوى فى طريقة الحكم ، ومعاملة الشعوب ، حتى لقد جاروا على الأحكام الشرعية الثابتة ، فقد أخذ الحجاج الجزية من مسلمى خراسان بعد إسلامهم ، ولم يرفعها إلا عمر بن عبد العزيز . وحدث انحراف تمثل فى بيع الفضة بالفضة بيعاً متفاضلا فى عهد معاوية ، وأرسل عبد الملك ابن مروان إلى غضيف الثمالى فقال له : يا أبا سليمان إنا قد جمعنا الناس على أمرين ، فقال : وما هما ؟ قال : رفع الأيدى على المنابر ، والقصص بعد الصبح والعصر ، فقال غضيف : أما والله إنها أمثل بدعتكم عندى ، ولست بمجيبكم إلى شىء منها . قال : لم ؟ قال : لأنى سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول : « ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة » . فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة ».

وإذا تتبعنا جهاد المعمرين من الصحابة كان عمر ، وجابر ، وسعد ابن أبي وقاص ، وأنس بن مالك ، وغيرهم ضد البدع في كتب التراث ، كالنفاق للفريابي ، والزهد لابن حنبل ، والزهد لأبي سعيد بن الأعرابي ، والزهد لابن المبارك وغيرها مما جاء في المراجع متناثراً ، لتبين لنا كيف انطمست حقائق المصطلحات الإسلامية من معانيها الحقيقية إلى معان سلبية وخطيرة على الإسلام ومسار دعوته .

الفصام في عصر العباسي :

وكان الصراع على الحكم ، وشيوع الأهواء . والتلويح بالذهب ، والشهوات الأخرى في عصر بني العباس سبباً رئيسياً في جذب الكثير من العلماء نحو الأضواء ، وفي ظهور الطامعين في حكم دولة الإسلام من الحاقدين وتحكم هؤلاء الطامعون في الخليفة ، وأجبروه على إذكاء نيران فتنة القول بخلق القرآن ، وامتحان العلماء فيها ، وجلد إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ، وأعلنت المحرمات ، وعطلت الحدود إلا في الحالات التي تخدم السلطة الحاكمة وأصبحت أعمال الآخرة تقصد للدنيا ، حتى لقد وضع بعض العلماء أحاديث مكذوبة على الرسول صلى الله عليه وسلم خدمة لهوى السلطان .

وكان العصر عصر استكشاف لأبعاد الشريعة وأعماقها في صورة اجتهاد من أهل الاجتهاد لتقنين الشريعة حسب تطور الحياة ، ولوضع الأصول الفقهية التي تصبح أساساً للأحكام المستقبلة التي تواجه الحياة في مراحل تطورها ، واجتذب هذا العمل الضخم طائفة من كبار العلماء العاملين السائرين على محجة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والجامعين لصحة العمل في القلب والجوارح على السواء ، وأخصهم أبو حنيفة والشافعي ومالك وأحمد وتلاميذهم وسفيان الثوري وعبد الله بن المبارك وأمثالهما . . ولهذا لم يكن هناك متسع أمام هؤلاء العلماء ليدونوا فقه أعمال القلوب إلى جانب فقه أعمال الجوارح .

وكان هذا الفراغ في الدراسة ، والذي لم يدون من علمه إلا شذرات

من الحكم الجامعة نطق بها الزهاد الأوائل مثل داود الطائى ، والفضيل ابن عياض ، ووكيع بن الجراح ، وأبى إسحاق الفزارى ، وأمثالهم من أهل التقى والورع ، كان هذا الفراغ إلى جانب الشهوات المبذولة سبباً فى تدهور وعى القلوب ، حتى شاع الجهل بأعمال القلوب . لولا ظهور طوائف من الزهاد اتخذوا لأنفسهم مدارس لنشر وعى القلوب ، ولكنهم تكلموا فى المقامات ، وتشددوا فى الزهد فى مواجهة الترف ، حتى خلف من بعدهم خلف بذلوا جهدهم فى أعمال القلوب ، وأهملوا أعمال الجوارح ، وعالج الخلف هذا الإهمال بمخالفات صريحة للإسلام تركزت حول أداء هؤلاء الفرائض فى الكعبة وهم يقيمون فى بغداد ، أو أن مخاطبة الملائكة والمكاشفات السرية بين العلماء وبين الله تشغلهم عما تعارف عليه العامة من عمل الجوارح ، أو من التدقيق فى استيفائها من الناحية الشكلية .

وباختصار : . غلب على الناس الكذب فى العمل والقول الأمر الذى دفع المحاسبى إلى وضع الحق فى نصابه فى أعمال القلوب وأعمال الجوارح على السواء لأول مرة فى تاريخ الفكر الإسلامى الفسيح ، فكان مدرسة متميزة تعنى باستكشاف النفس الإنسانية ودراسة حركاتها ، ووصف أمراضها وتحديد عناصر علاجها إلى جانب نشاطه فى الفقه الإسلامى والحديث وعلم الكلام ، والرد على المعتزلة وغيرهم من الفرق فى عصره من حيث كانت المدرسة الثانية للسنة بزعامة الإمام أحمد بن حنبل لا تعنى بتدوين الدراسات النفسية ، بل عنيت بالفقه والحديث والسلوك العملى دون زيادة على ذلك .

وإلى جانب الحركة الفقهية والحركة السلوكية كان هناك جمع من العلماء يبحثون الأحكام الشرعية التى تحفظ المسلم من أكل الحرام بعد أن قارف المحرمات الأخرى ، وقد جمع المحاسبى من هذه الآراء مجموعة تلقى ضوءا قوياً على اضطراب العصر ، وحاجته إلى تدوين قواعد السلوك الصحيح . ويقول المحاسبى فى هذا الصدد : « وقد تكلم طوائف من الفرق بمذاهب فى المجانبة ، وصفاء المطعم والملبس ، يختلفون ويتقاربون ، فمنهم من اختار العزلة عن الأئمة والسلطان وأعوانهم بأعيانهم ، وفرقة جانبت كل من اتصل بهم . وهذه الطائفة ركبت الغلو فى الدين ، وقال الحسن البصرى : إن

المكاسب قد فسدت ، خذوا منها القوت ، وقال أبو وائل : إن أهل بيت بالكوفة على مائدتهم رغيف حلال لأهل بيت غرباء . وطائفة اختارت المباح من الجبال والأودية والرمال من ورق الأثل ، ولقط البذر ، والحشائش التي لها ثمن إذا ادخرت ، فجمعوا منها لصيفهم في شتائهم ، وطائفة اختارت ما ألقته الرياح ، وما ظهر من الحشيش والكلأ على وجه الأرض من كلأ الصحراء إذا اشتد بهم الجوع ، وطائفة اختارت المسألة لأخذ القوت منها كما سأل موسى عند الحاجة . وطائفة بالثغر والشام اختارت أن تجمع اللقاط من وراء الحصادين ، وطائفة اختارت كدالبد أو ضرب السيف (وعلى رأسهم إبراهيم بن أدهم) . وطائفة اختارت الرباط ، وهم مجمعون على القتال مع كل أمير بر أو فاجر » . . (المكاسب ٢١١) .

وكان المحاسبي واسع الأفق ، شامل النظرة ، لأنه كان يربط بين منهجه في الإصلاح النفسي والشرعي القائم على الكتاب والسنة وبين استعادة دولة الإسلام مجدها الحق . فقال في صدد كلامه عن سلوك الصحابة : « قد جمعت لهم الطاعة مراداتهم فيها ، على قدر الإقبال عليها ، وأوضحت لهم سبل الرشاد فيها ، فلم يريدوا بما أدركت أيدي الظفر منهم بدلا . . . وأصبحوا في ذلك توفيقاً من سيدهم ، ومعونة قائمة بالكفاية لهم ، وخفي لطف غير منقطع عنهم ، فدام لهم الحال ، وزكت الأعمال ، ولم يجدوا عند ذلك هوى غالباً ، ولا عدواً مطالباً ، أمات العلم بالله أهواءهم ، وغلب لهم أعداءهم ، وجمع شملهم ، وأحكم أمرهم ، وكان التوفيق لهم مصاحباً ، وخفي اللطف من الله دائماً ، والتأييد من سيدهم مرشداً » .

كان الخطر الوافد على صميم الإسلام في أعمال القلوب وأعمال الجوارح أقوى من جهود المدارس السلوكية التي ظهرت في مختلف الأقطار ، ولهذا دون المحاسبي آراءه في كتب ، وكأنه كان يدرك أن التيار سوف يجترف العالم الإسلامي فيفرقه بين موجات الضلال الوافد .

كان يدرك أن العالم الإسلامي سوف يحتاج إلى كتب مدونة في أعمال القلوب ، ولن تجديه المناقشات الشفوية ، ولا الأقوال المتناثرة ، وهو يقول في ذلك : « فجميع الخلق في فنون الطاعات ، وتحذير الباطل في مذاهبه

إذاجمع وألف كان أنشط لحفظه وتفهمه . لمن كان لا ينشط لأن يطلب علمه حتى يجمعه . وليس من تفرد بكتاب يقرؤه وحده متثبتاً فيه ، لا يشغله عنه سبب يقطعه كمن نازع غيره ، لأنه يعترض فى المناظرة آفات كبيرة من العجب بالرأى » .

لقد اشتغلت جماعات الصوفية من بعد المحاسبى فى طريق امتدادها بالقول فى المقامات والمواجيد والكرامات . ثم تطور الحال إلى ظهور أهل الفتوة واختلطوا بالشطار والعيارين . ثم ظهور « القلندرية » التى تطورت عن الملامتية . وأقدم من عرف من شيوخها قطب الدين حيدر التونى المتوفى عام ٦١٨ هـ . ويقال : إنه أباح لأتباعه تناول الحشيش ، وأطلق عليه « مدامة حيدر » . وصار ذلك من تقاليد طريقته مع تقاليد أخرى منها حلق الشعر من الوجه كله وعدم التقيد بالآداب الاجتماعية المعروفة وإهمال الواجبات الشرعية ، ولبس جلود الضأن مما جعل التصوف ينزع نحو شكليات غامضة لمجرد جذب النفوس .

ثم كان تسلط التصوف النظرى الذى كان هدفه فى الحقيقة هو احتواء الفلسفات الأجنبية فى نطاق الفكر الإسلامى . ولكن سطوة القول فى الحقائق لا سيما الحقيقة المحمدية كانت هى الأخرى مصدراً لمتاعب فكرية هائلة إذ احتقر الصوفية من هذا النوع علماء الشريعة . وسموهم « علماء الأوراق » أو « علماء السطور » ، وأطلقوا على أنفسهم « علماء الأذواق » أو « علماء الصدور » . الأمر الذى نشأت من أجله عداوة بين الفريق ، ورمى كل فريق صاحبه بالعظائم ، ومضى كل فى طريقه . حتى ظهر الغزالى . فحاول الربط بين فقه أعمال القلوب وفقه أعمال الجوارح فى كتابه «إحياء علوم الدين» الذى يعتبر امتداداً لمؤلفات المحاسبى . وإحياء لها بعد توسيع مفاهيمها وتعميقها .

ومضى العالم الإسلامى فى تجربته المريرة بعد تدهور سلطان دولته ، وتغير الكثير من المفاهيم والمصطلحات الإسلامية ، وراح الكثيرون من المسلمين يتلمسون علاج نفوسهم الممزقة فى ظلال علم النفس المستورد ، ونسوا أن تراث المحاسبى يشكل مدرسة هائلة للتحليل النفسى الناجح والدقيق لا نجد منهجها فى أى مدرسة من مدارس علم النفس الحديث . الأمر الذى يجعل هذا التراث ضرورة للعالم الإسلامى فى بعثه الجديد . ويقظته التى شملت أقطار العالم فى العصر الحديث .

الإمام المحاسبى

نشأته وحياته :

نشأ الحارث بن أسد فى أواسط القرن الثانى الهجرى ، وعاش حتى عام ٢٤٣ من الهجرة ، وكان أبوه ذا مال كثير ، وكان قدرى المذهب ، أى إنه كان مشتغلا بقضايا الفكر على صورة من الصور ، ولكن ولده ، لم ينشأ تابعاً له ، لا فى قضايا الفكر ، ولا فى هواية المال ، بل نشأ مستقلا تماماً تحت لواء الحق الشرعى أينما وجد وحيثما كان . ومن هنا نشأ الحارث مع الصدق فى ثوب واحد . فكان الصدق هو الميزان الوحيد الذى توزن به أعماله وحياته وعلمه . لا تخطئه فى كل ما يقول وما يعمل ، ولا أيما يأثره عنه مؤيدوه ومعارضوه .

وأبرز دلائل صدقه مع الله أنه عاش بعيداً عن والده الذى يقول بالقدر ، وكان اجتهاده قد هداه إلى القول بكفر القدرية ، ولم تقف الأبوة فى طريق جهره برأيه فى سبيل الله ، فتعلق بأبيه عند « باب الطاق » فى بغداد ، وصاح به : طلق أمى فإنك على دين وهى على دين غيره . وبهذا العمل الجليل تم ولاء الحارث للإسلام وللحق ولو صادم هذا الحق الأب والعشيرة .

ومن دلائل صدق المحاسبى مع الله وحده أنه رفض ميراثه من أبيه ، ويروى أبو القاسم الجنيد : أن الحارث مات أبوه يوم مات وهو فى حاجة إلى دانق . وكان أبوه ذا مال كثير ، ولكنه رفض وقال : لا توارث بين أهل ملتين ، لأنه كان يقول بكفر الخوارج . ورغم أن خلاف العلماء حول كفر القدرية يتيح للحارث أن يأخذ بالرأى القائل بعدم كفرهم حتى يحل له ميراثه من أبيه ، ولكنه أخذ بالاحتياط الأشد ، وهو فى أمس الحاجة إلى المال ليرد عن نفسه غائلة الجوع .

ومن دلائل صدقه الفطرى : أنه ضرب المثل الأعلى للشباب فى استقلال

الرأى وعدم التبعية الفكرية ، ويبدو هذا الاستقلال الفكرى من ظاهرتين فى حياته العلمية :

أولاهما : أنه ما إن شب وتحرك عقله نحو المعرفة وضع مدارس الفكر ومذاهبه فى عصره أمام عينيه ، وأخذ فى فحص كل مدرسة وكل مذهب على حدة ، فلا الخلاف بين الفقهاء ، ولا مخالفة القول للعمل بين الوعاظ والنساك والزهاد والقراء ، ولا أهواء الاعتزال قد أشبعت ميول الحارث ، وملأت عليه الفراغ الذى يشعر به من داخل ذاته ، رغم ما يسود تلك المدارس من مظاهر الجاه ، ونفوذ الكلمة ، والقرب من السلطان ، لأن الحارث كان شخصية صادقة فى تفردها العجيب بالولاء للإسلام وحده ، وأصيب أثناء بحثه عن الجو الذى يتناسب مع ميوله بأزمة نفسية ، ولكنه اهتدى فى النهاية إلى من سماهم بالأخفياء الأتقياء مما يدل على صدقه ، وعزوفه عما تردى فيه العلماء من أوحال الشهرة والجاه ، حتى لقد أفرد فى وصاياه فصلا تحدث فيه عن العلماء وما يمارسونه من مخجلات فى سبيل الجاه قبل الولاء للعلم وحده.

ثانيهما : أن مذهبه الفقهى مستقل هو الآخر ، فليس مقلداً لأحد من الأئمة رغم أن السبكى قد ترجم له فى طبقات الشافعية . وقد فطن الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله إلى استقلاله الفقهى من حديثه عن الوضوء فى كتابه « فهم الصلاة » ، وقال : إنه لا يتفق مع الوضوء عند الأربعة الأئمة بل إنه يحتوى ما قاله الأئمة ويزيد عليه من السنن ما يراه ثابتاً فى السنة ، ويلزم نفسه به مما يدل على أنه مجتهد مستقل الفكر وليس مقلداً .

ونقول : إن حديثه عن أبواب من الفقه لم ترد مستقلة فى كتب الفقه ، واستيعاب أقوال العلماء فيها ، والتعقيب برأيه أو ترجيحه لأحد الآراء ، يدل كذلك على استقلاله الفقهى عن مجال التقليد ، ويظهر ذلك من تبويبه للشهرة ، والحسبة فى إدخال السرور على المسلم ، ونظر الفجأة ، ومذاهب الورع ، والحركة فى طلب الرزق ، وغير ذلك مما لا نجده مجموعات فى باب مستقل من مصادر الفقه الأخرى .

وتروى المصادر أنه حين حضرته الوفاة قال لمن حوله من تلاميذه : « إن رأيت خيراً ابتسمت لكم ، وإن رأيت غير ذلك عرفتم ذلك فى وجهى »

ورغم أن بعض العقلانيين يشكون فى مثل هذه الوقائع ، فإن روايتها عنه تعطى انطباعاً خاصاً عن الرجل ، وأنه كان لا يدع فرصة يمكن أن يكون منها علم إلا انتهزها . فلعله أراد أن يؤكد لتلاميذه سلامة مذهبه من بعده لأنه كما تقول القصة ابتسم لهم وصعدت روحه إلى بارئها .

ومن مظاهر صدق المحاسبي مع ربه ما رواه الجنيد البغدادى إذ قال : اجتاز بي الحارث يوماً وأنا جالس على باب دارنا . وكان كثير الضر من الجوع . ورأيت على وجهه زيادة الضر من ألم الجوع . فقلت : يا عم ، لو دخلت إلينا نلت من شيء عندنا ؟ فقال : أوتفعل ؟ قلت : نعم ، وتسرنى بذلك وتبرنى . فدخلت بين يديه ، وعمدت إلى بيت عمى إذ كان أوسع من بيتنا . وتوجد فيه أطعمة لا يتيسر وجود مثلها عندنا سريعاً . وجئت بمائدة عليها أطعمة فاخرة . ووضعتها بين يديه . فأخذ لقمة . وأخذ يلوكها لا يزدردها . ثم قام مسرعاً وما كلمنى .

فلما لقيته من الغد قلت : يا عم ، سررتنى بالأمس ثم نغصت على . فقال : يا ولدى . أما الفاقة فكانت شديدة ، ولكن بينى وبين الله علامة إذا لم يكن الطعام مرضياً عنده ارتفعت إلى أنفى منه زفرة ، فقد رميت بتلك اللقمة فى دهليزكم وخرجت .

ولا تفسير لنا لهذه الواقعة إلا أنها دلالة صادقة على صدق الرجل فى بيعة نفسه لله ولمرضاته على صورة فريدة لا تتهيأ لأقرانه من العلماء .

حتى طريقته فى تأليف كتبه . واستكشاف حاجات النفس الإنسانية تدل على صدقه فيما يكتب .

قال الجنيد : كان الحارث يأتى إلى منزلنا فيقول لى : اخرج معى نصحر : أى نذهب إلى الصحراء ، فأقول له : عزلتى أنسى ، وتخرجنى إلى وحشة الطريق . ورؤية الشهوات ، فيقول : اخرج معى ولا خوف عليك كم تقول عزلتى أنسى ، والله لو أن نصف الخلق قربوا منى ما أنست بقربهم . ولو أن النصف الآخر بعدوا عنى ما استوحشت لبعدهم . فأخرج معه . فكأن الطريق فارغاً من كل شيء ، فلا نرى شيئاً نكرهه . فإذا انتهينا إلى

المكان الذى نجلس فيه بحيث لا يرانا أحد قال : سلنى ، فأقول : ما عندى سؤال أسألك ، فيقول : سلنى عما يقع فى نفسك . فتنثال على السؤالات . فأسله عنها ، فيجيبنى عليها للوقت ، ثم يمضى إلى بيته فيعملها كتباً .

وهكذا صدق الرجل فصدر فى كلامه عن وقائع بعيدة عن التخمين والجزاف ، وكان سابقاً فى ابتكار منهج الاستقراء والتجريب .

وقد افتعل الناس نزاعاً وصراعاً بين الإمامين المحاسبى وأحمد بن حنبل . ونحن لا نرى هذا النزاع بهذه الضخامة التى صورها المتأخرون فى مصادرهم . فكل ما فى الأمر أن ابن حنبل لم يرض عن تجرد المحاسبى الرد على أهل الأهواء فى كتب مستقلة . وتروى المصادر أن المحاسبى لما علم بذلك قال : « أنا أتوب مما أغضب على أبا عبد الله » . أما أن يحذر الإمام أحمد من الاستماع للمحاسبى ، ويقول : حذروا عن حارث . لا توبة لحارث . فهذا ما يستحيل أن يصدر من الإمام أحمد رجل السنة المدقق ، الذى لا يمكن أن يغلق باب التوبة عن عاص مجاهر بالعصيان ، لا سيما وأن المصادر تروى أن الإمام أحمد جلس فى بيت إسماعيل السراج تلميذ المحاسبى . وكان المحاسبى قد اجتمع بطلابه هنالك . وقد جلس الإمام أحمد بحيث يسمع كلام المحاسبى ولا يراه ، وقال فى النهاية : « ما سمعت فى الحقائق مثل هذا الرجل . وما رأيت مثل أصحابه معه » .

وكان ما فى الأمر فيما نرى أن الحارث قد اندفع يكتب ضد أهل الأهواء ويسقط حججهم ، ويدعو للسنة والصواب . وأن الإمام أحمد يرى إهمال شأن أهل الأهواء لتموت دعوتهم ، ولا يرتفع شأنهم بالرد عليهم . وأن الجهود يجب أن تتجه نحو إحياء السنن ، والدعوة إلى إحيائها بالقدوة ولزوم المنهج الفكرى لأهل السنة . وهذا خلاف لا غبار عليه . ولا يمكن أن ينسب من خلاله إلى إمام عظيم كابن حنبل أن يغلق باب التوبة عن مسلم ، فليس هذا القول من صنيعه ولا مذهبه ولا دينه ولا خلقه فى شىء .

وتبالغ المصادر فى أن غضب الإمام أحمد من الحارث دفعه إلى اعتزال الناس ، ولزوم بيته حتى مات ولم يصل عليه إلا أربعة نفر .

وتلك فرية لا نستطيع تفسيرها إلا بأنها من صنع التلاميذ .. ولنفترض أن ذلك قد حدث فى حياة الإمام أحمد ، فما الذى يدعو المحاسبى إلى الاختفاء فى منزله بعد وفاة الإمام أحمد، ولماذا يصلى عليه أربعة نفر وقد توفى الإمام الذى كان يمكن أن يكون له نفوذ بين الناس فيمنعهم من الصلاة عليه ، وإن كانت تلك الحملة ليست من خلال أحمد ؟ ولماذا لم يغضب الإمام أحمد على مدارس التصوف التى زخرت بها بغداد وكان روادها يخلطون فى كلامهم ، ويجمعون بعيداً عن السنة ؟ .

نعم .. قد نرى أن كلام الحارث المحاسبى ، ونقده الدقيق لأخلاق العلماء والنساك والقراء والزهاد يمس فى الصميم أخلاق التلاميذ من حلقة الإمام أحمد ، فافتعلوا هذه الضجة حول الرجل . أما الإمام نفسه فقد كان فى سلوكه ودينه مثلا يحتذى ولا يوجه إليه نقد . ومن ثم تسقط دعوى ثورة الإمام أحمد على المحاسبى على الصورة التى نراها فى المصادر ، ويدلنا على ذلك أن الذهبى روى قصة اختفاء الإمام أحمد ليسمع كلام المحاسبى وعقب عليها بقوله : وهى قصة صحيحة السند لا تقع على قلبى .

شيوخه :

درس المحاسبى علوم الحديث رواية ودراية ، والذين نعلمهم من من شيوخه فى الحديث : سنيد بن داود ، ومحمد بن كناشه ، وعبد الله ابن بكر السهمى ، ويزيد بن هارون ، ومحمد بن بشار ، وروح بن عبادة ، وغيرهم ، وأما شيوخه فى السلوك فلم يتحدث عن أحد منهم ، ولكننا نستطيع أن ندرك صلة وثيقة بين اتجاه المحاسبى نحو الموت والبكاء واتجاه أسلافه من الزهاد الذين اتجهوا نفس الاتجاه . ومنهم :

١ — صالح المرى الواعظ المتوفى عام ١٧٢هـ . وكان كما يقول أبو نعيم فى الحلية : « إذا أخذ فى وعظه كأنه رجل مذعور ، يذعرك أمره عن حزنه وكثرة بكائه كأنه ثكلى » .

٢ — مالك بن دينار ، وكان زاهدا واعظا ، وكان يرى أن الحزن والبكاء ضروريان للقلب لأن القلب « إذا لم يحزن خرب ، كما أن البيت إذا لم يسكن خرب » .

٣ — الحسن البصري . سيد الزهاد والتابعين : ويروى عنه الجاحظ أنه كان « إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه ، وإذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه ، وكان إذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له » ، ويروى عنه ابن الجوزى قوله : « طول الحزن فى الدنيا تلقيح العمل الصالح » ، وكان يعلن الحزن بقوله : « إن العبد بين مخافتين : بين ذنب قد مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما يصيب فيه من المهالك » . ويقول : « لا يؤمن أحد بهذا القرآن إلا حزن وذبل ، وإلا نصب وإلا ذاب ، وإلا تعب » .

٤ — داود الطائى . توفى عام ١٦٥ هـ — وكان رجلا زاهدا منعزلا يدعو إلى العزلة ، ويقول فيما يروى ابن الجوزى : « صم الدنيا ، واجعل فطرك الموت ، فر من الناس فرارك من الأسد . غير طاعن عليهم ، ولا تارك لجماعتهم » .

هؤلاء نماذج ممن أثروا فى حياة المحاسبى السلوكية ، إذ يتفق معهم فى لزوم الحزن الدائم لعمران القلب وصفائه ، وفى لزوم عزلة الناس بالقلب ، ومخالطتهم بالجسد ، مع لزوم الجماعة وحب الخير لهم . والسعى فى مصالحهم ولكن مع اليأس منهم فى كل أمور الدنيا .

ولم يكن المحاسبى ممن يبهرون بمظاهر الزهد على الرجل فيحسن فيه رأيه ، ولكنه كان نقادا طالما رمى الكثير من الصوفية بالغلظة والجهل بالسنن . وأزرى على (عبدك الصوفى) وحذر من أوهامه ، ووصفه بأنه (مخلط) . وعبدك هذا اسمه عبد الكريم كما يقول المقدسى فى كتابه « الأنساب » ويروى الملطى فى كتابه « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع » أن هذا الرجل — كما يقول المحاسبى فى كتاب « المكاسب » كان يقول هو وفرقته : « إن الدنيا كلها حرام محرم ، لا يحل الأخذ منها إلا القوت من حيث ذهب أئمة العدل ، ولا تحل الدنيا إلا بإمام عادل ، وإلا فهى حرام ، ومعاملة أهل حرام ، فحل لك أن تأخذ القوت من الحرام من حيث كان » . ويقول الملطى : « إنه كان على رأس فرقة من الزنادقة » وقد وصفه المحاسبى بأنه « ليس على الأمة أمرها » .

ورغم أن الأئمة قد اشتغلوا بمسألة اختلاط الحلال بالحرام . حتى قال الأوزاعي : « فاض البحر . فليس إلا التقلل والفقر . لأن الأشياء تقاربت » فإن المحاسبي يرى في هذا الموضوع أنه « ينبغي لأهل العناية بالدين ، ومن كان منفردا لا عيال له ، ولا يحتاج إلى أحد في كسبه ، أن يطلب الوسيلة والسبق إلى رضوانه ، بالتقرب في إصلاح الكسرة ، وإن كان في ذلك حملان على نفسه ، ومكروه وثقل على بدنه ، فإذا ذلك أعون على مباشرة الطاعة » . وكان يوجب الحركة في طلب العيش . ويستند إلى السنن والآثار ويقول : « آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين قيس بن الربيع وعبد الرحمن ابن عوف فقال قيس لعبد الرحمن : هذا شطر مالي ، ولي امرأتان أنزل لك عن واحدة ، وكان مال قيس المال الصامت الذي رغب فيه . فقال عبدالرحمن لا حاجة لي بذلك ، دلني على السوق . فآثر عبد الرحمن الكسب على مال طيب هو مال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا شك في أمره ، وفي النفس منه شبهة ، عرض عليه من غير مسألة ولا إشراف من نفس » .

عبد القادر أحمد عطا

مؤلفات المحاسبى

١ – الرعايا لحقوق الله : نشرته المستشرقة مرجريت سميث فى لندن سنة ١٩٤٠ . وأعيد طبعه بالقاهرة عام ١٩٦٦ . ثم طبع ثالثاً بتحقيق عبد القادر أحمد عطا بالقاهرة عام ١٩٧٠ . وأعيد طبعه مرة أخرى بتحقيق عبد القادر عطا بدار الكتب العلمية ببيروت عام ١٩٨٥ .

٢ – آداب النفوس : طبع ببيروت ، دار الجيل ، بتحقيق عبد القادر أحمد عطا ،

٣ – الوصايا : طبع بالقاهرة عام ١٩٦٥ بتحقيق عبد القادر أحمد عطا وأعيد طبعه بدار الكتب العلمية ببيروت عام ١٩٨٥ .

٤ – المسائل فى أعمال القلوب والجوارح : وهو مكون من : المسائل فى أعمال القلوب والجوارح ، والمسائل فى الزهد وغيره ، وكتاب المكاسب وكتاب العقل . حققه عبد القادر أحمد عطا ونشره عام ١٩٦٩ ، وأعيد طبعه مرة أخرى عام ١٩٨٥ .

٥ – فهم القرآن : حققه حسن القوتلى ونشره عام ١٩٦٨ م .

٦ – كتاب العلم : حققه محمد العابد مزالى ونشره فى تونس عام ١٩٧٥ .

٧ – القصد والرجوع إلى الله : حققه عبد القادر أحمد عطا ونشر بالقاهرة عام ١٩٨٠ : وسيعاد طبعه مرة أخرى .

٨ – فهم الصلاة : مخطوط بدار الكتب المصرية ٤٠٦٤ عن جار الله ، وقد قام بتحقيقه عبد القادر أحمد عطا ، وهو تحت الطبع .

٩ – بدء من أناب إلى الله : نشره المستشرق ريتر عام ١٩٣٥ م ، وأعيد طبعه بالقاهرة تحت اسم التوبة بتحقيق عبد القادر أحمد عطا .

١٠ – التوهم : نشره المستشرق آربرى بالقاهرة فى لجنة الترجمة والنشر سنة ١٩٣٧

١١ – الخلوة والتنقل فى العبادة ودرجات العابدين : نشره الأب أغناطيوس عبده خليفة بمجلة المشرق عام ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ .

١٢ — رسالة المسترشدين : حققه عبد الفتاح أبو غدة . ونشرته مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب سنة ١٩٦٤ .

١٣ — النصيحة للطالبين : وهو ما زال مخطوطاً شهيد على ٣٣١٩ .

١٤ — معاتبة النفوس : وهو الكتاب الذى بين أيدينا .

١٥ — المراقبة والمحاسبة : تحت الطبع لنا .

١٦ — مختصر المعانى : وهو مخطوط — البنغال ١١٦٧ .

١٧ — المعرفة : وهو تحت الطبع لنا .

١٨ — الرد على بعض العلماء من الأغنياء حيث احتجوا بأغنياء الصحابة : مخطوط لالى بالأستانة رقم ٣٦١٦ / ٢٠ .

١٩ — الخصال العشرة التى جربها أهل المحاسبة : مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤١٨٤ تصوف عن نسخة مكتبة برلين .

٢٠ — التنبيه على أعمال القلوب والجوارح : مخطوط بدار الكتب المصرية ٤٠٦٤ عن نسخة جار الله بالأستانة .

٢١ — رسالة التصوف : تحت الطبع لنا .

٢٢ — أحكام التوبة : تحت الطبع لنا .

٢٣ — فصل من كتاب العظمة : مخطوط بدار الكتب المصرية ٤٠٦٤ تصوف عن جار الله بالأستانة .

٢٤ — محاسبة النفوس : مخطوط بالمتحف البريطانى بلندن ١٢٤٤ .

٢٥ — رسالة فى الأخلاق : مفقود .

٢٦ — أخلاق الحكيم : مفقود ، وذكره المحاسبى فى أعمال القلوب والجوارح ص ١٥٧ ،

٢٧ — التفكر والاعتبار : مفقود ، وذكره ابن نديم فى الفهرست ص ٢٦١ ،

٢٨ — كتاب الدماء : مفقود ، وذكره ابن حجر فى التهذيب ٢ / ١٣٥

٢٩ — كتاب الغيبة : مفقود ، وذكر فى فهرست ابن خير ص ٢٧٢

٣٠ — فهم السنن : مفقود ، وذكره الزركشى فى البرهان ١ / [illegible]

كتاب معاتبة النفس ومنهج التحقيق

وصف المخطوطة :

هى رسالة صغيرة مودعة بخزانة المكتبة الأزهرية بالقاهرة تحت رقم (١٠٣٩ ، ٢٢٠٩ مجاميع) . والمخطوطة سيئة للغاية من حيث الخط ، وتصحيف الناسخ . وقد أثرت بها الرطوبة تأثيراً بالغاً : ولم نعثر على غيرها من المخطوطات سوى نسخة منها ولكنها ناقصة وهى محفوظة بمكتبة المرحوم عبدالقادر أحمد عطا .

والمخطوطة تتألف من ٢٠ ورقة من القطع الصغير ، ومسطرتها (١٧) سطر . ويتألف السطر من (١٠) كلمات .

أما نسخة المرحوم عبد القادر عطا فلم يبق منها سوى عشرة ورقات ولذلك اعتمدنا على النسخة الكاملة . مع الاستعانة بهذه النسخة فى تصحيح بعض الكلمات .

منهج المؤلف فى الكتاب :

على الرغم من صغر الرسالة إلا أنها حافلة بالمعانى السامية والأسس التى يقوم عليها رد المسلم المنحرف عن انحرافه ؛ وإقامته على سواء السبيل من جديد .

وقد ألف المحاسبي مثلها كتاب (التوهم) . ولكنه عبارة عن تذكير بالجنة والنار ؛ وبالنعيم والعذاب ، لعل المسلم أن يثوب إلى ربه من خلاله .

أما هذا الكتاب فيختلف عن التوهم فيمايلى :

٢ ــ تحديد وسائل اليقظة فى قلب المؤمن ، حتّى يقلع عن نسيان الذى أراده ورده إلى الإيمان بالقدر ، وتنبيهه إلى اطلاع الله على قلبه وجوارحه ، ومتى انبعث فى قلبه المراقبة مع الإيمان بالقدر فقد هدى إلى الصراط المستقيم

٢ — التحذير من قسوة القلب أن تكون مقدمة لطرد العبد عن باب الله ، وبيان ما في هذا الطرد من بلاء لاحق بالإنسان .

٣ — التحذير من سلب النعم بعد العطاء : ومن غضب الله بعد الرضا ، فالعبد لا يطيق غضب الله ، ولا يصمد له . ويورد لذلك احتجاجاً منطقياً مؤثراً أبلغ الأثر .

٤ — وعلى عادته ينصح المسلم بدوام ذكر الموت ، والخوف من سوء الخاتمة ، ثم يهيب به أن يعود إلى ربه ، ويقارن بين النعيم والعذاب في سلاسة نابعة من قلبه تلبث أن تصل إلى قلب المسلم سريعاً .

وقد أهاب بالإنسان في هذا الكتاب أن ينتبه إلى أمر له فيه أمل . ذلك أنه يهيب به أن يفزع إلى الله . ويديم التضرع على بابه ، والبكاء والعويل على خطاياه ، ويستغيثه ويسترحمه . ويذكر أن الله أكرم من أن يسمع لعبده أن يدعوه ثم لا يجيبه ، مادام الدعاء صادراً من القلب ، مشفوعاً بالخضوع والدموع بين يديه .

منهج التحقيق :

١ — قمت بنسخ الكتاب من مخطوطته الوحيدة ، ومراجعته عليها مرة أخرى .

٢ — قمت بتصحيح الأخطاء اللغوية وإضافة بعض الكلمات لتوضيح المعنى وقد نبهت في الهامش .

٣ — قمت بمراجعه آيات القرآن الكريم على المصحف . وتخريجها وإثبات أرقامها من سورها في الهامش .

٤ — قمت بتخريج الأحاديث الواردة على الكتب المعتمدة .

٥ — قمت بشرح الكلمات الغامضة والجمل التي غمض أسلوبها .

٦ — التعليق على بعض المواضع ، وآثرت الاقتصار على القليل منها حتى لا يتضخم الكتاب .

٧ — جاء الكتاب بدون عناوين لذلك رأيت أن أضع له عناوين حتى يسهل على القارئ استيعاب الفكرة .

٨ – قدمت الكتاب بعجالة للتعرف بالمؤلف وكتبه .

والله أسأله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، وأن ينفع به المسلمين ، وأن يجعله في كفة الحسنات عنده (يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شيء قدير . يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم) . والحمد لله رب العالمين .

الأهرام في ٤ مايو سنة ١٩٨٥ م

١٤ شعبان سنة ١٤٠٥ هـ

محمد عبد القادر عطا


مُعَاتَبَةُ النَّفْسِ

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن ياكريم

قال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي رضي الله عنه : الحمد لله المستحمد لعباده ، بلا فاقة[1] إليهم ، ولا حاجة ، وكل مستحمد سواه فللفاقة إلى من استحمد إليه ، فالله هو الغنى الحميد ، لا يستأهل هذا الوصف غيره ، ولا يستحق سواه ، وكذلك يقول فى تنزيله : « ... هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ »[2] .

فأعظم نعمة يستحمد بها إلى خلقه : ما من به على أوليائه من معرفته ، فزينه فى قلوبهم ، وحببه إليهم ، فضلًا من الله ونعمة ، وكره إليهم الكفر والفسوق ، والعصيان .

فجمع هذان[3] جميع مكارم الأخلاق ، ومجانبة دناءة

---

(١) الفاقة : الفقر والحاجة .

(٢) سورة لقمان الآية ٢٦ .

(٣) فى الأصل : هاتان . والمراد : حب الإيمان ، وكراهية الكفر .

الأخلاق ، فطهرهم من رجز[1] كل شر . ومنعهم من خسيسة دناياهم ، فأعز لهم أنفسهم ، وأغناهم به عن خلقه أجمعين .

فعليه يتوكلون ، ومنه يحذرون ، ورضاه ورحمته يرجون ، وقطعوا أعمارهم بطاعته ، والأمن فى جواره . وما كان ذلك إلَّا بلطفه ، رحمة بهم وامتنانًا ، فله الحمد على ما وهب ولطف .

* * *

---

(١) الرجز والرجس : الدناءة والنجس .

الظهر والبطن ... والحد و المطلع

أمّا ما سألت عنه من معنى قول عبد الله بن مسعود : « لكل آية ظهر وبطن ، وحد ومطلع »[(١)] .

فقد روى عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يعنى : « مطلع قوم يعملون به » .

وقد اختلف العلماء فى ذلك ، وأحسن ما قيل فى تفسيره ـ والله أعلم بمعنى ذلك ـ ما أجيبك به :

أما ظهرها : فتلاوتها .

أما بطنها : فتأويلها[(٢)] .

---

(١) قال العراقى فى تخريج الإحياء : أخرجه ابن حبان فى صحيحه ، من حديث ابن مسعود بنحوه .

ويقول صاحب الإحياء : « أن العلوم كلها داخلة فى أفعال الله عز وجل وصفاته ، وفى القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته ، وهذه العلوم لا نهاية لها ، وفى القرآن إشارة إلى مجامعها ، والمقامات فى التعمق فى تفصيله راجع إلى فهم القرآن ، ومجرد التفسير لا يشير إلى ذلك ، بل كل ما أشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق فى النظريات المعقولات ، ففى القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بإدراكها .

أنظر : (إحياء علوم الدين ١ / ٢٦٠) .

(٢) يبدو أن المحاسبي يقصد بالتأويل : التفسير . وبه قال الفيروزابادى ـ

وأما حدها : فمنتهى علمها[١] .

وأما مطلعها : فمجاوزة حدها بالغلو والتعمق[٢]

ومن ذلك قول عبد الله : « لا تطلعوا حدود الله » .

وذكر الحديث : « إن الجنة حفت بالمكاره ، والنار حفت بالشهوات »[٣] . فقال : ومن أطلع الحجاب واقع ما وراءه .

حيث قال عن التفسير : هو الإبانة وكشف المغطى (القاموس المحيط ٢ / ١١٠) وقرر فى النهاية أن التفسير والتأويل شيء واحد (٣ / ٣٣١) ، وقال ابن فارس : تأويل الكلام « عاقبته ، وما يؤول إليه » (مقاييس اللغة ١ / ١٦٢) . وقال الطبرسي : « التفسير : كشف معنى اللفظ وإظهاره . والتأويل : رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر » (مجمع البيان ١ / ٨٢) .

(١) وهنا فرق الله تعالى بين الكاذبين والصادقين ممن تلاها ، أو من صادق بلغ منتهى فهمها ، لأن أقل الصدق من المريد المؤمن بعد الإيمان بالآية أن يفهمها عن ربه ، وإن لم يعمل بها . وإنما قصر الناس عن فهمها لقلة تعظيمهم لقائلها : (المسائل فى أعمال القلوب والجوارح ، للمحاسبي ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ص ١١٦) .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى : « وتلك حدود الله فلا تعتدوها » .

(٣) حديث : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » ، أخرجه : مسلم فى صحيحه ، حديث ١ من كتاب الجنة ، وأبو داود فى سننه الباب ٢٢ من كتاب السنة والترمذى فى سننه الباب ٢١ من كتاب الجنة ، والنسائى فى سننه الباب ٣ من كتاب الإيمان ، والدارمى فى سننه ، الباب ١١٧ من كتاب الرقاق ، وأحمد بن حنبل فى مسنده ٢ ٢٦٠ ، ٣٣٣ ، ٣٥٤ ، ٣٨٠ ، ٣ / ١٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٨٤ ، وابن المبارك فى الزهد ص ٢٢٩ .

يعنى : من جاوز حجاب النار وقع فيها . لأن حجابها الشهوات ، وحجاب الجنة المكروهات[1]

فمن تجاوز المكروه[2] دخل الجنة ، ومن آثر الشهوات دخل النار ، فعلم أن المطلع هو المجاوزة[3]

وكذلك التقصير فى فهم آلائه يدعو إلى التقصير فى شكرها[4] ، لأن الله تعالى طلب منا أن نكون دون الغلو وفوق التقصير .

* * *

---

(١) المكاره هناك ، والمكروهات هنا . يعنى : ما ثقل على النفس فعله من الطاعات ، أو تركه من الشهوات . لا المكروهات الشرعية التى هى قريبة من الحرام .

(٢) تجاوز المكروه ، يعنى : لم يعبأ بكراهية النفس للعمل وثقله عليها ،فأقدم عليها مجاهداً لها من المكاره . ومن خلقه الله للنار لم تزل هداياها تأتيه من الشهوات » .

انظر : (الفوائد لابن القيم . المنيرية طبعة ١٣٤٤ ص ٣٢) .

(٣) فى الأصل : إلى التقصير فى فهمها ، واخترنا ما على هامش نسخة خاصة .

(٤) إلا أن يعفو الله عز وجل ، لأن الله تعالى أمر عباده أن يتحملوا المكروه حتى يدخلوا الجنة . وأمرهم بترك الشهوات حتى ينجوا من النار ، وقال ابن القيم من خلقه الله للجنة لم تزل هداياها تأتيه .

الأمن والغفلة

وقال : ثلاث خلال تلزمها قلبك :

الخلة الأولى : الإيمان بأن المقدور يأتى ، وأن مالم يقدر لاتناله ، والغنى بالله .

فمن ألزم قلبه ذلك أورث قلبه ثلاث خصال :

أحدها : أن يأمن قلبه أن يفوته ما قدر له .

والثانية : أن ييأس أن ينال مالم يقدر له .

فمن ألزم قلبه أن رزقه لا يفوته ، والإياس أن ينال مالم يقدر له استغنى ، وقل همه وخضوعه للخلق ، والمدارة لهم ، لأن ينال منهم منفعة[1] ، فهذا هو المستغنى عن

---

(١) صنف المحاسب كتابا سماه « المكاسب » تحدث فيه عن التوكل على الله فى باب مستقل قائلا : « إن المؤمنين فى جملتهم يسلم لهم عقد الإيمان بالله تعالى والتوكل عليه . فقد أقسم جل ثناؤه بنفسه أن قسم الأرزاق بين الخلق ، وأمضى الضمان بالكفاية لهم . فكان على الخلق تصديقه فيما أخبر وأقسم . فمن صدق فى ذلك ، كان بتصديقه وإيمانه مؤمناً متوكلا ، ومن كذب أو شك ، كان معانداً كافراً ، فالمؤمنون موصوفون بالتوكل على الله تعالى .فإذا عرض له شىء مما يكره الله عز وجل ، ذكر النظر ، وخاف المقت إن ركن إلى ذلك . وإن عرض له مافيه نقص — وإن لم يكن محرماً — =

غير الله[1] .

والخلة الثانية : الحذر من الله تعالى أن يغفل فيزل[2] ، فيسقط من عينه ، لأن الحذر يوقظه ، والتيقظ يذكره ، والذكر ينبهه ، حتى يراقب مليكه .

=استحى من الله أن يراه مقصراً عما يحب مولاه مع ما قد استودعه من العلم ، وعرفه من عظيم قدره ، وكبريائه جل جلاله » .

انظر « المكاسب » من ملحقات « أعمال القلوب والجوارح » تحقيق عبد القادر عطا ص ١٨٢ ، و« الأمد الأقصى » للدبوسى من تحقيقنا ، بدار الكتب العلمية ببيروت .

(١) وهذا الاستغناء عن غير الله هو الخصلة الثالثة التى يرثها من ألزم قلبه الخلة الأولى .

(٢) تحدث المحاسبى عن الغفلة فى باب مستقل فى كتابه « الرعاية لحقوق الله » وقرر أن الغفلة غفلتان :

الأولى : غفلة عن نسيان وزوال ذكر ، وهى غفلة الخائفين ، وهى أيسر الغفلتين ، لأن أقل الناس نسياناً لأسباب دينه أشدهم عناية بالقيام بحق ربه وأشدهم عناية بذلك أشدهم تعظيما لربه ، وأشدهم تعظيما لربه أكثرهم معرفة بتعظيم قدر ربه .

والغفلة الثانية : وهى أعظم الغفلتين ، وهى الغفلة التى معها الذكر وزوال النسيان ، ولم يغفل لأنه لم يعلم ، بل العلم معه قائم أن ذلك لا يرضى الله عز وجل ، وسمى فعله غفلة لأنه غفل عن تعظيم قدر من يعصى . وقدر شدة عقوبته ، ولذلك سمى غافلا ، لأن قلبه محجوب غافل عن الآخرة . وهذه الغفلة تكون فى المؤمن والكافر مع اختلافهما فى المعنى .

انظر : « الرعاية لحقوق الله » تحقيق عبد القادر عطا ص ٩٤ ، و « أعمال القلوب والجوارح » ص ١٥٥ وما بعدها .

والخلة الثالثة : ذكر اطلاع الله عليه فى ضميره ، وجوارحه ، فإن ذلك يورثه الحياء من الله عز وجل .

فإن عرض له شيء كرهه ربه ذكر النظر ، وخاف المقت إن ركن إلى ذلك .

وإن عرض له ما فيه التقصير من الفضل[1] — وإن لم يكن محرمًا — استحيَى[2] من الله أن يراه مع ما استودعه من العلم ، وعرفه من عظيم قدرته وكبريائه ، مقصرًا عن محبته .

وجملة ذلك : أن تغدو إلى سوقك أو غيرها ، فتلزم قلبك ثلاثًا :

اليقين ، والحذر ، والنظر .

فباليقين يحذر ، وبالحذر تيقظ ، وبذكر النظر ، يستحى من الناظر الأعلى ، جل ثناؤه تعالى .

---

(١) تحدث الإمام المحاسبى فى باب مستقل فى كتابه « آداب النفوس » عن « العدل والفضل » ، فى فرائض القلوب والجوارح ، وقرر أن العدل هو الفرائض والواجبات التى لا يسع المؤمن تركها من أعمال القلوب ، والجوارح ، والفضل ما لم يفرض فعله ولم يحرم ارتكابه . ولكنه من الآداب مثل سنن العبادات ، والزهد فى الدنيا ، وما أشبه ذلك .

انظر : « آداب النفوس » — تحقيق عبد القادر عطا — دار الجيل بلبنان .

(٢) فى الأصل : استحا ، خطأ من الناسخ .

احذر قسوة القلب

وقال: ينبغى للمؤمن إذا رآى القسوة من الرين [١] على قلبه عقوبة له على ذنبه: أن يخاف أن يكون الله سبحانه لما حجب قلبه عنه بالرين والقسوة أن يحجبه غدًا عن النظر إليه.

لأنه أخبر أنه عاقب من أخرجه عن ولايته بحجب قلبه عنه فى الدنيا، وحجب بصره أن ينظر فى الآخرة إلى جلاله [٢]، فقال تبارك وتعالى: « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ . كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ » [٣]. إحداهما تتلو الأخرى، حجابًا معًا فى التلاوة: حجاب القلب فى الدنيا، وحجاب العين عن النظر إلى الله فى الآخرة [٤].

---

(١) فى الأصل: الران، وما أوردناه أوضح، والرين والران: سواد القلب، وظلام بصيرته من أثر الذنوب.

(٢) هذا بيان لمذهب المحاسبي فى موضوع رؤية الله تعالى، وأنها فى الدنيا ببصيرة القلب، وفى الآخرة بالبصر، ولكن البصر فى الآخرة يقع على صفات الجلال، لا على الذات، كما أن بصيرة القلب هى الأخرى بطبيعتها لا تقع على الذات.

(٣) سورة المطففين الآية ١٤، ١٥.

(٤) أى أنه حجب قلوبهم عنه فى الدنيا، وحجب أبصارهم عن النظر إليه فى الآخرة لينزلها جميعاً، أحدهما يتلو الآخر ليس بينهما معنى ثالث.

فإن اعترض للعبد خاطر من الشيطان ليقطعه عن الخوف من الله عز وجل فليحذر أن تحل به هاتان العقوبتان[1] .

فإن قال الشيطان : إنما أنزلها الله فى الكافرين .

فليرد عليه : وإن كان قد أنزلها فى الكافرين ، فإن الله لم يؤمن منها كثيرًا من المؤمنين ، ورئى أحدهما ، قد حل بكثير من المسلمين[2] .

وقد حذر الله المؤمنين أن يعصوه فيعاقبهم بما يعاقب به الكافرين فقال : « وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ »[3] . يعنى : لأعذبكم بها معهم .

وقد ذكر الكافرين بإيجابه[4] ، ثم أخبر أنه يريد بذلك تخويف عباده المؤمنين ، فقال : « قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ

---

(١) فى الأصل : هاتين العقوبتين خطأ ؛

(٢) يريد : الرين على القلب ، والقسوة الناشئة منه ؛

(٣) سورة آل عمران الآية ١٣١ .

(٤) يعنى : إيجابه النار لهم .

النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ »[1]. فحذرهم أن يعذبهم بالنار التي يعذب بها الكافرين .

وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى فى السماء مخيلة[2] أكثر الاختلاف بالدخول والخروج ، فأقول : يا رسول الله ، لم تكثر الدخول والخروج؟ فيقول : « وما يؤمننى أن أكون كما قال الله عز وجل : (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) »[3].

وقال عمر رضى الله عنه : « أما ترونى أبصر رقيق العيش » ، وقال أيضًا لغلامه : « انضح العصيدة بالماء ، فإنه يكسر حرارة الزيت ، فإنى سمعت الله عز وجل عير أقوامًا فقال : (... أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ...)[4] » .

فحذر من وقع فى الشهوات أن يقع به ما عاقب الكافرين ، ولم يؤمن منه المؤمنين .

فعلى المؤمنين أن يخافوا أن يجمع الله بينهم وبين الكافرين فى الخزى والعذاب .

---

(١) سورة الزمر الآية ١٤-١٦ . (٢) المخيلة : السحاب المؤذن بالمطر ؛

(٣) سورة الأحقاف الآية ٢٤ : والحديث أخرجه أحمد بن حنبل فى الزهد (٧٥).

(٤) سورة الأحقاف الآية ٢٠ .

احذر السلب بعد العطاء

وقال : العجب كل العجب من عبد آمن بربه ، وأيقن بشدة عقوبته ، وأليم عذابه ، وعرف قدر ثوابه وكرامته ، كيف تقر عينه ، أو يزايل الحزن والوجل قلبه ، وهو يرى نفسه كل يوم فى إدبار ؟

وأعظم من ذلك : الأمن من إبعاد الله عز وجل له عن قربه .

فإن كان عبدًا قد عوده الله قبل ذلك التوفيق ، والعصمة عن معصيته ، وفرغ قلبه عن الاشتغال بالدنيا[1] وألزم قلبه التعظيم عند ذكره ، وشدة الفزع منه عند نسيانه ، فسلب منه ذلك ، وابتلاه بأضداده ، باتصال الغفلة ، وكثرة النسيان ، والتغميض عن تضييع الحقوق ، حتى صار مباعدًا عنه ، مطرودًا عن قربه ، حيرانا سكرانا ، يطلب الرجوع فما يجعل إليه بالتوفيق سبيلًا[2] .

وكيف لا يتعجب المتعجبون ممن أنزله الله بهذه المنزلة

---

(١) ليس المراد أن يكون الإنسان سلبياً فى عمران الدنيا ، بل يكون عاملا بكل قوته ، ولكنه غير متعلق القلب بمتاع الدنيا ، بل يستوى عنده أن ينال منه وأن يهبه كله فى سبيل الله .

(٢) فى الأصل : فيما يجعل به إليه بالتوفيق سبيلا ، وهو تحريف من الناسخ .

من الهوان والمذلة ، والإقصاء والبعد ، بعد العز والكرامة ، والإقبال عليه ، وسرعة الإجابة لدعوته ؟

بل كان الرب سبحانه وتعالى يسارع إلى محبته[1] من غير دعاء ولا طلب منه إليه ، وهو بعد ذلك قرير العين مسرور القلب ، مشتغل بطلب الدنيا ، لا يكترث لما فقد ، ولا يحن إلى ما سلب ، ولا يعتبر بالرجوع عمَّا عليه عوقب .

إنما حزنه خطرات قلب لا تلبث .. وقصر عنه بقلب مشغول .

فكيف لا يدوم الحزن ، ويشتغل قلبه بالله عند الطلب ، وهو عن الله محجوب ، ومن القرب منه مطرود ، قد حل منه بالحرمان ، وقد عاقبه بأن سلبه كرامة المواهب ، وعز العناية ، فصار موليًّا عنه بعد الإقبال عليه مشتغلًا بغير الشغل بربه .

وأعظم من ذلك أنه لا يشتد حزنه أن يكون الله سلبه كراماته ، وعاقبه بإبعاده ، لغضب منه ، وسقوط من عينه .

فالعجب كل العجب ممن كانت هذه منزلته !! نعوذ بالله من حلول عقوباته ، ونسأله النقلة إلى ما يحب ويرضى بتوبة يطهرنا بها من كل ما يكره ، والإقبال عليه ، والشغل عن الدنيا وأهلها ، ونسأله أن يجعل ذلك سريعًا .

ولكن قد حق الحزن والعويل والنفس معرضة .

(١) يسارع إلى محبته ، أي : يسارع في إجابة .

أنت لا تطيق غضب الله

يا نفس . . مالى أراك مطمئنة . والغالب عليك الفرح والسرور ، وشواهد المقت بادية عليك . ودلائل الغضب بينة فيك فى كثير من أحوالك ؟

قد اطمأننت وسكنت ، وكثيرًا ما يغلب عليك الفرح والسرور فى أكثر الأحوال ، وأنت ترين فيك من الله دلائل الغضب ، وشواهد المقت ، ثم لا تبكين ، ولا لذلك تكترثين ، كأنك لغضب الله تطيقين ، ولعذابه تجهلين .

هيهات . . هيهات .

إنك عن دون الله لتضعفين . . ومن أقل أذى الدنيا تجزعين . . فكيف بشدة غضب الله . . وأليم عذابه ؟

ولكن عقوبات الله منعتك من أن تجزعى[1] . فكيف يصنع الله بمن لا يجزع من غضبه ، ولا يتوجع من أليم عذابه ، ولا يصلح على آدابه ، ولا يقبل عليه بالإقلاع . شكرًا لدوام نعمائه ، ولاينحاش ولايهرب إليه لما يرى من سوء آثار عقوباته فى الدنيا خاصة دون معاشه فى نفسه وعياله .

---

(١) المراد بعقوبات الله : طمس البصيرة ، وسواد القلب .

اذكر نظر الله إليك

ويحك يا نفس . . ألم ترى أن مولاك(١) قد أبعدك عمَّا كان يتعاهد به قلبك من هيجان التيقظ ، وقوة التنبه والدوام على ذكره ، والجزع من نسيانه ، وشدة عذابه ؟

لقد رغب الله قلبك فى أول أمرك . . وتأديبًا كانت بلية الله فيك(٢) . . وتقريبًا منه إليك . . وتحننًا منه عليك .

فنبه قلبك عن الغفلات . . ومن عليك بجود الحلاوة عند الطاعات . . وشدة التلذذ بالمناجاة . . فأصبحت وأمسيت مباعدة من الله . . مطرودة عن بابه . . منحاة من قربه . . قد حل بك منه الخذلان .

تتمادين فى الغفلات فلا يوقظك ، ويدوم منك النسيان فلا ينبهك ، وتكون منك الزّلة بعد الزّلة ، فلا يدوم لك الحزن ، ولا يطول بك الغم . بل قد قلب التنبه فيك فصار لا ينبهك ولا يذكرك .

---

(١) فى الأصل : من مولاك ، وما أثبتناه أوضح .

(٢) هذا نوع من البلاء للتأديب ، وتكفير الذنوب ، وإعادة الإنسان إلى الصراط المستقيم ، وعلامته ألا يشكو صاحبه إلى الناس ، وإن ضاق بالبلاء .

ثم يحجبك بالعقوبة عن استعمال التذكر وطاعة التنبه . . فصرت فى شر حال ، ويليه منزلتان : طول الغفلة ودوام النسيان لنظر الجليل العظيم ، ثم شهوتك لترك استعمال التذكر وطاعة التنبه .

فالحال الأولى : طول غفلة لقلة المبالاة بأن يطلع وينظر .

والحال الثانية : جرأة وإقدام عليه مع التذكير ، والتنبيه إلى أن صار ذلك يباعد منه ، ويحرم الخلود فى جواره .

فهل سمع السامعون بأسوأ منك حالاً ؟ وهل عرف العارفون بأشر من منزلتك ؟ ثم مع ذلك الحزن عنك زائل ، والغم لك مباين ، والتوجع لك غير لازم ،وقدر آلك مولاك فى أسباب الدنيا بأضداد ذلك كله ، شغلك بطلبها دائم .

لا تملين . . تنشطين وتقوين إذا رأيت الزيادات فى معاشك . . وتنكسرين إذا رأيت النقصان فيه . . ولا يكون ذلك فيما بينك وبين ربك إلاّ فى أقل الأوقات .

فقد أصبحت عند الله مفتضحة . . ومن البعد منه غير مكترثة .

لقد أصبحت وأمسيت وهو عليك غير مقبل ، والك غير مقرب ، مقصاه منه مباعدة عنه ، ولولا تفضله عليك بالعفو لسلبك نعمة الدين كلها . ولكنه يبقى من العقوبة تفضلًا وإحسانًا .

من أجل ذلك وجب حبه على المطيعين والعاصين جميعًا .

ويحك . . مالك فى الجهل مفعمة مغموسة . . وفى البلايا متلوثة .

ويحك . . هل عقلت من تعصين ؟ بل هل عقلت من تعوقين ؟

ويحك . . تتمادين فى الغفلات فلا يوقظك ، ويدوم منك النسيان فلا ينبهك .

فكيف لا يغلب ذلك عليك ، وأنت كل يوم فى نقصان ، وكل يوم لا تفرين من العصيان ؟

إن تبت لم تلبثى أن ترجعى عن توبتك ، وعاودت فى تخبطك ، وإن عزمت لم تقلعى ، وإن فعلت ما عزمت عليه فمن الآفات لم تسلمى[1] ، عن حب محمدة أو عجب بما عملت .

---

(١) قول المؤلف : وإن عزمت لم تقلعى ، يريد العزم على ترك المعصية ، وقوله : وإن فعلت ما عزمت عليه ، يريد الطاعات .

تعاهدين فتعذرين ، وتعدين فتخلفين ، وتحلفين بالله ثم لا تفين ، فلو كنت جاهلة كان أخف للحجة عليك ، وكان أبعد لك عن الجرأة على مولاك[1] .

ولكن عظمت عليك الحجة ، ودامت منك الجرأة ، إذ كنت للآثار طالبة ، وللقرآن حافظة ، وفي الدقائق من الحكمة مناظرة ، وبحسن العظات ناطقة ، تدعين إلى الله وأنت منه فارة ، وتذكرين بالله ، وأنت له ناسية ، تعظمين الله بالقول وأنت بالفعل غير معظمة .

* * *

(١) لا يريد المؤلف أن الجاهل لا حجة عليه ، فالجاهل يجب عليه أن يسأل أهل العلم . ولكن يريد أن الحجة على العالم أعظم منها على الجاهل . وعصيان العالم جرأة . وعصيان الجاهل بالحرمة لا يوصف بالجرأة .

تذكر ساعة الموت

ويحك أنت اليوم مهملة .. والله لك منظر[1] .. وعن قليل تنقطع المدة .. وتزول النظرة[2] .

ولو قد تغشاك الموت وسياقه فلقد حضرك العدم ، فأعطيت النية الصحيحة حيث لا يقبل[3] .

ويحك .. أتدرين عمَّا ينكشف الغطاءُ ؟

أما تخافين لو بلغت منك النفس التراقى أن تبدو رسل الله منحدرة من السماء بسواد الألوان ، وكلح الوجوه ، وبشرى العذاب[4] ، فهل ينفعك حينئذ الندم .. أو يقبل منك الحزن .. أو يرحم منك البكاءُ ؟

ويحك .. بادرى حلول الأجل بالتوبة .. واغتنمى

---

(١) فى الأصل : ناظر . والسياق يقتضى ما أثبتناه .

(٢) النظِرة بتشديد النون وفتحها ، وكسر الظاء المعجمة . يعنى : المهلة . أى : دار الحياة الدنيا ومدة العمر فيها ، فهى إمهال من الله تعالى للعبد ليصلح فيها أمره .

(٣) لأنها تشبه توبة البأس . يعنى : التوبة عند الغرغرة ، وهى غير مقبولة .

(٤) استعمال البشرى فى العذاب تهكم ، كما فى قوله تعالى : « ... فبشرهم بعذاب أليم » .

عيش كل ساعة . . فإنك فى السير مجدة . . وفى كل وقت من لقاء الله تقربين .

ويحك . . تكلفى الحزن واطلبيه . لعلك من الحزن الأكبر تنجين[١] .

ويحك . . كدرى الفكر فيما سلف منك من الذنوب ، وعودى البكاء عيناً بالدموع قبل سيلها فى نار جهنم .

ويحك . . استعينى بأرحم الراحمين . . واشتكى إلى أكرم الأكرمين . . وأديمى الاستغاثة ، ولا تملى طول الشكاية ، لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك . . فإن مصيبتك قد عظمت . . وبليتك قد تفاقمت[٢] . . وناديك قد طال .

قد انقطعت منك الحيل ، وانزاحت إليك[٣] العلل ، فلا مهرب ولا مطلب ولا استغاثة ولا منحا[٤] ولا منجا إلَّا إلى مولاك .

فاضرعى إليه . . واخشعي فى تضرعك على قدر عظيم

---

(١) الحزن الأكبر : الحزن يوم القيامة . وقد نجى الله منه أولياءه ، فقال : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

(٢) تفاقمت : اشتدت خطورتها .

(٣) فى الأصل : وانزاحت منك ، خطأ .

(٤) لا منحا بالحاء المهملة من التنحية ، وهى الإبعاد ؛ أى : لا إبعاد عن غضب الله إلا بالتقرب إليه .

جرمك ، وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الذليل ، ويغيث الطالب المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر ، فقد ــ والله ــ أصبحت إليه مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، فألحي بالطلب للفرج . . واشتكى لعظم المصيبة ، فإن المطلوب إليه كريم ، والمسئول إليه جواد ، والمستغاث به رءوف .

فأديمي الاستغاثة فإنه يغيثك . . وإن من إغاثته لك أن من عليك بالاستغاثة ، فإن أدمت أتم ما من به عليك ، وأجاب الدعوة ، وعجل الإغاثة ، فقد ــ والله ــ ضاقت بك السبل ، وانسدت الطرق ، وانقطع منك الحبل ، ولم تنفع فيك العظات ، ولم يكسرك التوبيخ .

فليرك مولاك مقام المضطرين الحيارى الملهوفين ، لأنه إن آخذك بعظيم جرمك لم يغثك ، وإن صفح بجوده أن يؤاخذك أسرع إجابتك .

فادعى دعاء من لا يستأهل أن يجاب ولا يغاث ، طامع من الجواد ألّا يناقش بالسيئات ، ولا يؤاخذ بالخطايا ، ويغيث من يدعو ، وهو عند نفسه لا يستأهل أن يجاب ، ولكن حمله على التضرع معرفته بكرم المسئول وجود المطلوب ، ورحمة المستغاث .

فاعقلى ما فاتك من طاعة ربك ، وما أفنيت من عمرك في غير التقرب إليه .

فيا أسفاه على طاعته . . ويا حزناه على رضاه . . ويا خجلاه مما أطلع عليه . . وياطول كمدك إن حرمك جواره في الآخرة . . كما حرمك صدق معاملته في دنياك . . ويا تقلقلك في حر جهنم إن لم يعف عنك .

* * *

توهم عذاب النار .. وعد إلى ربك

ويحك . . اذكري ما يحل بأهل عذابه من اشتعال النار فى جميع أجسامهم ، ووصولها إلى أحداقهم ودخولها فى أجوافهم .

ويحك . . كيف ترين وجع قلب عبد دخلت النار فى عينه ، ونفذت إلى جميع بدنه ؟

بل كيف بنار تأكل أمعاءه وكبده ؟

بل كيف بلسان من نار يدخل فى جوف قلبه ، ثم يلتهب فى جميع أعضاء جسده ؟

ويحك .. أتأمنين أن يكون هذا غدًا نعتك وصفتك ، وهذه حالك ؟

ويحك . . ارحمى ضعف جسمك ، ولا تخاطرى به ، ورقى لقلة صبرك ، ولا تغترى .

إذا لم ترحمى بدنك من النار فمن ترحمين ؟ ، وإذا لم ترق له فعلى من ترقين ؟

والله لو تبت وأنبت وأطعت ، لم آمن عليك أن يردك ولا يقيلك ، فاستقيليه عسى ألَّا يردك ، ولا تنالين ذلك إلَّا به .

فافزعى إليه فزع المالك ، وتضرعى إليه تضرع

الغريق ، واستغيثي به استغاثة العطب . فإن المستغيث مأذون له فى الاستغاثة ، والله الداعى موفق للدعاء[1] . .
فما كان الكريم يمن بالاستغاثة ، ويهيج على الطلب ، وهو لا يريد ممن فعل به ذلك ألّا يجيبه .

ولكن ليكثر المتفضل عليه[2] بالدعاءِ على مقدار نقمته وليلح بالطلب على قدر مسكنته ، فلتقصير فى ذلك رد أكثر المستغيثين[3] .

فأمّا من فتح الله عليه باب الاستغاثة ، ومن عليه بالتضرع إليه ، فعظم منته بذلك ، وعلم أنه أعطى ما لم يستأهله ، ثم داوم وواظب على الطلب ، فلن يخيب الله دعوته ، ولن يمسك إجابته .

أبى الجواد بكرمه ، وجوده أن يرد من أراده فاشتكى إليه .

فداومى ، ولا تملى ، فمن كان فى مثل حالك لا يمل دوام التضرع ، لشدة مسكنته ، ولعظيم مصيبته .

---

(١) يعنى : الداعى عباده إلى دعائه بقوله : « ادعونى أستجب لكم » .
(٢) يعنى : من تفضل الله عليه بالتوفيق إلى الدعاء .
(٣) رد أكثر المستغيثين لأنهم لا يلحون بالدعاء والطلب ، ويدومون عليه ، بينما الشريعة تحث على إدمان الدعاء ، وتعتبره مخ العبادة . وفسروا قوله تعالى : « . . . إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » بأن العبادة : الدعاء .

وازن بين النعيم والعذاب

ويحك . . إن لم تخاف العذاب ، ولم ترحمي جسدك ، أما تشتاقين أن يحل بك من الله الرضى ، وينظر إليك بالحظوة ؟

ويحك . . أما تحنين إلى طيب جوار الله فى جنته ، فى روح لا يزول ،ونعيم لا يبيد ، وقرة عين لا تنقطع ، فوق الأمانى مما تشتهيه الأنفس مع البقاء واليقين بالرضوان ؟

وأعظم من ذلك تشتاقين إلى أن تزورى مولاك ، وتسمعى كلامه لك بالترحيب ، ويكشف الحجاب فتنظرى إلى من لا يشبهه شىء فى جلاله ؟

ويحك . . فى هذه الدار وجب ذلك كله للعمال ، وفى هذه حل الحرمان كله على الجهال فعيشك غنيمة ، وبقية عمرك إقالة ، فافرحى ، واشكرى مولاك أن يكون الموت عاجلك ، فحال بينك وبين الرجوع ، وقطع بك عن النزوع ، وفاتك طيب جوار الله الجليل العظيم .

ويحك . . لا تزهدى فى القرب من النار ، ولا تستهينى بطيب الجوار ، ولا تعرضى عن الرغبة فى رضوان الله .

إنى لأقول لك هذا . ولا أدرى أى حال عند الله حالك .

بماذا ينظر إليك فى ساعتك هذه . . بالمحبة والرضوان . . أم بالغضب والسخط والحرمان . . وأى الدارين دارك . . وأى القرارين قرارك . . وأى العيش عيشك . . فكلا الدارين قد امتلأ بسكانها . . ووصل كل واحدة منها أهلها .

فأطلع بقلب فارغ إلى الجنة وقد ثوى[1] فيها سكانها . . إلى انفساح سعتها ، وبرد طيب نسيمها . وإلى طيب ما يفوح من روائحها ، وإلى حسن بناء قصورها . . وبهجة حليها وحريرها . وتلألؤ نورها على أسرتها وحجالها وحسن وجوه أهلها . ونضرة أثر النعيم فى وجوههم . وقربهم من مليكهم ، ويقينهم برضا الله عز وجل عنهم ، واختلاف الملائكة رسلًا من الله إليهم ، وتردد الولدان كاللؤلؤ فى لذاتهم ، واضطرار أنهارها على جنادل ياقوتها ، وقد تضمنت من أصناف البهجة فى عرصاتها .

ثم اشرف بوجهك على دار الهون والخزى : فانظرى ببصر قلبك إلى شدة ضيقها ، وتكاثف ظلمتها وانطباق أبوابها ، مسودة بالعمد[2] عليهم ، ووهج النيران فيها .

(١) ثوى فيها سكانها : أقاموا فيها .
(٢) يشير إلى قوله تعالى فى وصف جهنم : « إنها عليهم مؤصدة . فى عمد ممددة » .

ثم انظرى إلى قبيح صور المعذبين فيها ، وإلى شدة نتن دارهم ، وتهتك أجسامهم ، ونتن مقطعات ما بهم ، وإلى النيران ملتهبة من فوق رؤوسهم ، وأسافل أقدامهم ، وإلى حياض الحميم تفور ، معدة بشدة عطشهم ، وتجاوب أصواتهم بالويل والثبور ، وإلى تضرعهم إلى مالك والخزنة وندائهم الأقرباء بالاستغاثة . ثم دعاهم إلى ربهم ، فأخسأهم ، فانقطعت أصواتهم ، والتحمت أفواههم ، وحبست أنفاسهم ، وبقوا بالغم والكرب لا يتنفسون إلى حلول غضب الله عليهم ، وانقطاع رجائهم منه .

وتوهمى ما تضمنته حواشيها من صنوف الهوان ، والألوان من العذاب ، فإنك إن نظرت فى ساعتك هذه إلى كل واحدة منها وعظيم ما فيها ، ثم لم تأمنى حرمان جوار الله ، والخلود فى دار عذابه أشفقت ، وإن أشفقت حذرت ، وإن حذرت أيقنت بكل ما يتوعد به ، فتبت وأنبت ، ومن كل ما يكره تطهرت .

فانظرى وتوهمى إلى عواقب من أطاع واتقى ، وعواقب من عصى الله وأساء ، ولا ترضى بأن تخاطرى فيما إن وقعت فيه لم تقلى[1] ، ولا إلى الدنيا تردين .

---

(١) لم تقلى ، أصلها : لم تقالى من الإقالة ، وهى التحرر من العذاب ، وإنما حذفت ألف الفعل ، وهى عينه بسبب « لم » الجازمة .

بادر أمرك فى الدنيا

ويحك . . إن الدنيا دار نجاة الآخرة .. بقدرما تحملين فيها من المكروه لله تعوضين . . وبقدر ماتتركين من ملاذها تجزين .

إن الجامعين بذلوا الأحزان فى الدنيا ، فورثوها فى الآخرة دوام السرور .

أطالوا البكاء فى الدنيا . . فدام فى الآخرة فرحهم .

تعبوا ونصبوا . . فورثوا راحة الأبد .

رفضوا لله الشهوات . . فرجوا الجوارى القاصرات . . وتنادموا بالخمور . . وصاروا إلى منية وغاية من اللذات .

ويحك . . فلا تدعى معاملة مولاك فى دار العمل . . فتخسرى الدنيا والآخرة .

ويحك يا نفس . . ابكى على ما مضى من سوالف الذنوب . . فإن المنقطع به يستعين بالبكاء إلى من يستغيث به . . رجاء أن يرحم .

فخذى فى البكاء والعويل ، والنوح والضجيج ، لعله أن يرحم منك العبرة ، فيقيلك العشرة ، ويعجل لك النقلة .

فإن رحم الله بكاءك ، وسمع شكواك ، وعلم منك النوح والعويل إذ عرف عظيم سيئك ، رجوت أن يعجل لك الفرج ، وينقلك إلى مقام من تولاه ، ورحم تضرعه وشكواه .

فخذى فى النوح والعويل ، والشكوى والتعديد طلبًا لجبر المصيبة ، وقولى : يا رحمن يا رحيم ، يا عظيم يا جليل خلقتنى وسويت خلقى ، وربيتنى فأحسنت تربيتى ، حتى بلغت مبلغ من وجب عليك فرضك ، وحرم عليه ما نهيته عنه ، لم أشكرك نعماءك ، ولم أرع حقك ، فتعرضت لمساخطك ، ووليت وأعرضت ، فما فارقنى مع ذلك سترك ، وجميل إحسانك .

ثم عاودت التعرض لمعصيتك ، فما زدتنى إلَّا برًّا ولطفًا أدمنت تحرى رضاك ، فأبيت إلَّا عطفًا وتحننًا أُعارض كل إحسان منك بإساءتى ، وتعارض كل إساءة منى بإحسانك .

ثم مننت على تنظر إلى طول غفلتى ، فأيقظتنى من رقدتى ، ونبهتنى من غفلتى ، فقصدت إلى إصرار قلبى فحللته بالتوبة ، توفيقًا منك لى .

فلما ظهرت توبتى للعباد ، أبت إلَّا أن تردنى إلى

زينة الدنيا ، وحسن ثناء الخلق ، والركون إلى تعظيمهم ، فرجعت كاذبًا . أتصنع برجوعى إليك ، وأتزين ، بشقوتى منك .

ثم مننت على بطلب الآثار ، والحفظ للقرآن ، فعصيتك بعد العلم والبيان معاصى فى الجوارح وأسباب المعاش ، ومعاصى فيما مننت على به من الطاعات ، والقربة إليك ، ففى كلا الحالين أتمقت فيما أتقرب به إليك ، أخلطه بما يباعدنى منك ، وفيما أعصيك به ، أتعرض لسخطك ، فعظم منى الإجرام إذ كان بعد العلم والبرهان ، فاغتررت بالستر إذ ظهر حسن الثناء من الناس ، فركنت إلى قيام المنزلة ، فصرت أعمل فى دوامها ، وأجزع من نقصانها .

فأنا العاصى فى دنياى ، وأنا المفلس المسلوب ، بل أنا الموقر بالخطايا والذنوب ، بل أنا العليل الدائم على التعرض للسقوط ، كأنى مقيم على أسباب مهلكتى .

فالويل لى إن كان قد سخط علىّ ربى .. والخيبة لى إن كان مقت الله حل بى .. والحسرة لى إن كان الله أوجب علىّ ألّا أجاوره فى جنته .. والويل والعويل إن كان قد أغلق الباب عنى ، فلا ترفع لى السماء دعوة .. ولا يصعد إليه منى عمل .

فياطول حزنى وغمى . . ويا طول جهدى وكمدى إن كان الله قد قطع ما بينى وبينه ، فلو محى جميع أهل السماوات والأرض لعظيم مصيبتى لكانت أعظم من محى بهم رحمة لى .

ويحى وتأويلى . . لعلى من أعداء الله وأنا لا أدرى ، ولعله أوجب على نفسه أن لا يقيلنى دون أن يجعل النار من الدنيا منقلبى ، فما بينى وبين الهوان والذل الطويل والحزن إن لم يعف عنى إلى أن تنقطع أيام أجلى ، فيحضر وقت منيتى ، ويكشف لى عن الغطاء ، ويأتينى الخبر اليقين .

فيا جهدى وضعفى . . ويا ذل استحيائى . . ويا شدة حسرتى وعظم ندامتى ، لقد خبت إذ رد دعائى ولم يرحم شكواى .

فكيف يغيث من غضب عليه ؟ وكيف يرحم من سخط عليه ؟

فأنا الجرىء الذى لا يقلع ،و أنا المتمادى الذى ،لا يستحى .

ويحك يا نفس . . أين تلاوة القرآن ؟ وأين معانى الآثار ؟ وأين الشكر لمن لا تعرفين منه إلّا الإحسان ؟ رضيت بأحوال الجاهلين ومنازل الغافلين ، وأعمال الفاسقين .

ويحك يا نفس.. أليس قد انقطع عنك كل لذة ، وزالت عنك كل رفاهية ؟ وانقضت الساعات والأيام ، وما كان فيها من التخليط والذنوب ؛ وبقيت عليك الأوزار . هذا ما قد قضى وذهب.. وبقى السؤال !!.

فهكذا تستقبلى أيامك.. ما يكون منها وما يبقى عليك من التبعات ، فتحولى عمّا ينقضى ويبقى سوء عاقبته ، والله فما ينفعك معه رزق ولا أجل ، ولا يفارقك حسن عاقبتك فى دنياك وآخرتك .

ويحك.. فنادى ربك بصوت محزون من قلب محتدم مغموم.. واسبلى الدموع واستغيثى استغاثة المكروب .

فقولى يارب هذا مقام المتضرع المسكين ، البائس الفقير ، الهالك الغريق ، فعجل إغاثتى وفرجى ، وأرنى آثار رحمتك ، وأذقنى برد عفوك ومغفرتك وارزقنى قوة عظمتك ولذة إقبالك علىّ ، وترويح زوال عقوبتك ، وسرور القلب منك ، وأنس الحب لك.

فبدل أحوالى ، واقلب همتى ، وحول لذتى حتى يصير ذلك فى صدق معاملتك ، وحلاوة مناجاتك ، وراحة الثقة بك .

* * *

استحى من الله وحده

يا نفس فادعيه وأنت منه مستحية ، فقد طال قلة حيائك منه .

ويحك.. تستحين من الخلق من المؤمنين والكافرين أن يروا فيك ما يعيبونك به ، ولا تستحى ممن يطلع على كثرة ما عندك من ذنوب وسوء ضميرك .

ويحك.. إذا حملت وعاء من أوعية الشر ، فإنك ترتعدين خوفًا أن يبدو للناس شيء مما فيه من الشر . فمتى تصلحى ما بينك وبين الله ؟ هيهات .. اذكرى الموت كالعبد السوء الذى لا يستحى من مولاه ، ولا يرجع عن مساوئه ، ولا يعرف إحسانه إليه إلا عند الحساب ، والعقاب ، واذكرى الموت وما بعد الموت .

ما ظنك بمن يكره أن يطلع الناس منه على ما يكره الله ، ولا يستحى أن يطلع الله منه على ما يكره .

سوءة لك.. وعجبًا لك !! حيث تتركى ، وتضيعى الفرض ، وتركبى من الأشياء ما كره الله ، ثم تتقربى إلى الله بما لم يفرضه عليك ، وتتعاطى النوافل ، وتأمرى ،

وتنهى ، وتدعى الناس بزعمك إلى الله ، وتأبق منه وتأمرى ولا تعملى ، وتنهى ولا تنتهى .

سوءة لك .. فمن ذلك ينبغى أن تستحى .

فادعى على تفقد لطف مولاك لعلك أن تستحين منه ، فإن لطفه باطن وظاهر مع إساءة منك باطنة وظاهرة ، فهو يديم إحسانه بأضعاف الإحسان مع دوامك على الإساءة بصنوف من الإساءة .

ويحك .. أو كافرة أنت ؟ أم شاكة فى الله أنت ؟

ويلك .. والويل لك ، ما أسوأ حالك !! مهلكة وأنت تعلمين .. مع ذلك فى السرور تتقلبين ، وبالله لا تبالين .. من خلقه تستحين ومنه لا تستحين !! .

ويلك .. على الغضب منه تستقدرين !! أما تستدلين ؟ فأنت لا تكترثين ولا تحزنين ، كل ذلك غرة بالله وجرأة عليه ؟ !! .

فقد تحيرت يا نفس فى أمرك !! وتبدلت فى التأنى لكى أعاتبك ولا تغيثينى ، وأعظك ولا تتعظين ولا تنكسرين ، وأعيرك فلا تستحى ، وأشكوك إلى من علمك فلا تداني أهلًا للجواب ، وأستغيث منك فلا تغيثينى !!

فما أدرى !! كيف حيلتى ؟ ولمن أستغيث ؟ وبمن

أستعين ؟ على ربى لعله له عنده جاها فيطلب لى فيشفعه ويفرج عنى ، فما أجد حيلة إن لم يجب دعوتى !! .

مولاى . . ولا مطلب للفرج إلّا بتكرار الإغاثة . . ودوام الشكوى . لعله يرحم ضعفى ، ويكشف ضرى . ويزيل سقمى ، وينعش صرعتى ، وينقذنى من غرقى .

فأنا والله الكذاب المستور عند العباد ، وأنا الهالك الفرح ، وأنا الغريق المسرور .

لا تقنط من رحمة الله

يارب .. فمن سمع بمثل ضعفي ، ومن رأى مثل شر منزلتي . فإليك أشكو ، وبك أستغيث .. مع اليقين بأني لست أهلا لأن تغيثني ولا تفرج عني ، لكن أنت أهل أن تروح عني ، وترحم مسكنتي ، فإن معرفتي أنه لا يملك أحد إغاثتي غيرك هي التي اضطرتني إلى الإياس من كل فرج إلا من عندك .

الأمل فيك أن تجيب دعوتي ، وتنعشني من مصرعي فلا تخيب أملي .. وعجل تحقيق طمعي ، فما جرائي على الطلب إلا ما مننت علي به من معرفة وجودك العظيم ، ورحمتك الواسعة ، وتحننك على الضعفاء من قبلي ، ونقلت من نقلت من عظيم جرمه وكثرة خطاياه ومساوئ فعله .

* * *

تذكر عذاب القبر

فأغثنى يا مغيث .. وارحمنى يا رحيم .. فأنا اليوم فى رفاهية فى دنياى مع سوء حالى فى دينى .

فقد قرب زوال الدنيا عنى ، ووقوعى فى الأهوال المتصلة ، والشدائد المتداركة ، والغموم المتوافرة من نزع الموت وكربه ، مع عظيم خطر ما يأتينى منك من الصفح والغفران ، أو السخط لما كان منى من العصيان

ثم حلول القبر وضغطة الأرض ، والسؤال من الملكين ، والمكث الطويل فى البرزخ ، ثم الحشر والكشف عن الغطاء .

فإن لقيتك على حالتى هذه فما أطول همى فى القبر ، وما أشد يوم النشور على ، ثم يغلب على قلبى إن لم تغثنى فى الدنيا ، فتنقلنى مما يسخطك إلى ما يرضيك عنى .

إن إغاثتك فى تلك الأهوال لا تنالنى ، فالهلاك الذى – والله – لا ينقطع فى لقائك ، والهوان فى يوم النشور .

فيا غربتى فى القيامة .. ويا طول الحسرة والندامة .

فياطول بكائى يوم القيامة ، وسجنى فى النار عن طيب جوارك والنظر إلى جلالك .

إنى لأرجو - وإن كنت أخرت إغاثتى - أن لا تدعنى لسوء حالى حتى يعجل فرجى ونقلتى . فأسألك بوجهك الكريم ، وقدرتك على كل شيء ، وإرادتك النافذة فى كل ما تريد ، وأوليتك التى لا بداية لها ، وبقائك الذى لا انقطاع له ، أن تكشف خزيى ، ولا تؤاخذنى بعظيم جرمى ، وكثرة عصيانى ، قلة حيائى .

* * *

داوم على الإغاثة والدعاء لله

فوعزتك . . لا يردني ردك لى . وتركك إغاثتى ، إلا دواماً على التضرع ، وكثرة الإلحاح بالطلب ، لأنه لا يحل لى أن ينقطع منك رجائى .

فلم تؤخر إجابتى ؟ فلا بخل يعتريك ، ولا لزوال قدرة منك على فرجى ، ولا أنك تعلم سوء حالى ولا أن رحمتك تضيق عنى ، ولا لأنى لست محتاجاً مضطراً إلى ما أطلب إليك .

وأتضرع وأستغيث . . فإذا كانت لا علة لحبس إجابتى إلا من قبلى . ولا يحل أن ينقطع منك رجائى ، لأنك لو أردت أن ينقطع رجائى لم يبق لى فيك الأمل ، وقد حسن فيك ظنى وأمكننى طمع أن تريد إجابتى . وإنك إنما حبست عنى الإغاثة ليطول منى الطلب ، ويدوم منى التضرع ، كما دمت على معاصيك . وواظبت على تضييع أمرك ، فتحبس حتى أدمن على التضرع . كما أدمنت على الإعراض عنك عقوبة .

ثم تفرج عنى بعد الإلحاح ، وتغيثنى بعد الدوام

على الشكوى والاستكانة . فأسرع غياثي ، ولا تكافئني بطول تأديبي ، فإن كافأتني وأنت تريد أن تغيثني بعد طول الدعاء . فلا تنزع مني توفيقك لإدامة الاستغاثة ، وتواتر الاستكانة . فإنني لا أقدر على الإلحاح بالفزع إليك إلا بتوفيقك ، فلست أدعي الدعاء إن حبست على النقلة .

ثم تستجيب دعوتي وترحم ضرعتي وهلعي ، فها أنا ذا متضرع مسكين ، وعلمك على أضرع وأخضع .

فإن تعجل فرجي فقد تم سروري ، وإن تؤخر راحتي من بلاي في الطلب والدعاء تنفيس ، وإذا لم تنيلني الأمل فيك ولم تحرمني من الشكوى[1] إليك وإلقاء نفسي بين يديك مع أملي .

* * *

---

(١) في الأصل : الشكوا ، خطأ .

تذكر أن الله يغفر الذنوب جميعاً

إن غمى إن عقابك لعظيم ، وإنه خزيي شديد ، وإن كربي لغالب ، إذ كنت أعيش بالطلب والفرج لي غير معجل .

وقد رأيت وسمعت ، وأيقنت وأدركت من قد مدحت عنه وأغشته ، وعجلت فرجه ، فطهرته من الأدناس ، وألزمته الإشفاق والحب لك ، والحنين إليك

فلو تقطعت كبدى حسرات لكنت بذلك حقيقياً لأني مضطر مجهود ، أطلب فلا أعطى ، وأرى ماتتقلب فيه أعمالك من كثرة الأيادى ، ودوام الإحسان ، ولا تطاوعني نفسي أن أشاركهم فى مقاماتهم .

وإنما أسأل الذى من عليهم بذلك أن تشركني في التوفيق معهم .. فطوبى لعبد أغشته ، فطهرت من دنس الذنوب قلبه ، وألزمته التعظيم لك ، وحسن الدعاية لك ومننت عليه بصدق الحب لك وشدة الحنين إليك ، وعظيم الشوق إلى لقائك ، مع خوف شديد وحزن طويل ، والوجل والشفق مما مضى من تفريطه ، وما سلف من

من ذنوبه ، فهو يتحنن إليك ، ويأنس بقربك ، وينعم بمناجاتك ، وهو يخاف أن يحال بينك وبينه .

فقدطاب فى باقى عمره عيشه ، فوهته من خوفه ورغبته ، وحبه وحنينه يتصاعدان لهم ، ويسموان بوهمه ويستخرجان منه .

بذلت المجهود فى التقرب إليك ، فهذا من أغثته بلا نقص دخل عليك فى ملكك ، وأنا قد تركتنى فقيراً محتاجاً ، لا تنقصك إغاثتى . فعجل فرجى لأن تأخير إجابتى يحزننى ، ولا أدرى متى يكون فرجى ؟ !

أنا مغموم لما مضى من إعراض عنك ، ومما يكسر فؤادى ويقرح قلبى نظرى إلى عمالك يتقلبون فى كرامتك ويترفعون فى مواهبك ، ويتنعمون بشدة الحنين إليك . عن الدنيا معرضين ، ولمعالى القرب منك فى طلبه جادين ، غنى فى نفوسهم عمن سواك ، وعز بك من العبيد .

فأنا عبدك كما هم عبيدك ، وأنا فقير مضطر كما كانوا مضطرين فى سوء الحال ، فصفحت لهم عن خطاياهم ونقلتهم عن دناءة أخلاقهم وقبيح أعمالهم .

فألحق عبيدك الفقير المحتاج بعمالك الأقوياء ، وبالراجعين إليك المنيبين ، ولا تؤخر ذلك طرفة عين ، وإنما أمرك إذا أردت شيئاً أن تقول له كن فيكون .

فقل للخوف والوجل والرهب والشفق أن تلزم قلبي . وللحب لك أن يعلو على جميع همى ، ولجوارحي بمن تدأب مسارعة ، ولهواى وشهواتي أن تموت خاشعة حتى تذيقني الفرح بنعيم الطاعات ، واصلاً بنعيم الأبد في جوارك والنظر إلى جمالك .

يا إلهي .. ويا ربي .. ويا موضع شكواى ومفزعي في لهفي .. إنما أعيش برجاء جودك . فلولا ذلك لخشيت أن تنشق مرارتي ، وتتفتت كبدى كلما ذكرت جرأتي عليك ، وإقدامي على ما نهيتني عنه . ولم يكسرني ما عرفتني من عظيم جلالك .

كاد الإياس أن يخامر عقلي ، وضاقت على الأرض برحبها ، إذ كنت لا آمن أن أكون انقلبت في عينك بالمقت والسخط على .

هذا خوفي .. مع قسوة قلبي يكاد عقلي معه يطيش . فكيف إن أتتني رسلك بالبشرى بذلك عند الموت ؟؟ لقد تحقق إذاً خوفي ، وانقطع رجائي ، وبطل أملي . وحسر قلبي ، وعظمت حسرتي وندمي ، ولا مغيث لي ولا شفيع ولا أُرَدُّ إلى الدنيا التي فيها خالفت أمرك . فأطيعك وأتحرى رضوانك .

هيهات .. لا مرجع ولا مستعتب ، فانظر إليَّ برحمة لا أستأهلها ، أو بادرني قبل حلول الموت بتوبة ترضاها فإني أرجوها ، ولا آمن أن تمن بها عليَّ ، ولكن أطمع فيك إذا وهبت لي معرفتك ، ولم تبلغ بي عقوبتك أن تسلبني الإيمان بك ، وأبقيت لي الطمع فيك ، فبالجود الذي أمسكت عن عقوبتي أن ينقطع منك أملي ، ألا حققت أملي ، وأسرعت بفرجي ؟!!

* * *

تذكر يوم الحساب

ويحك يا نفس .. كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ، وتظنين أنك إذا مت وانفلت وتخلصت .. وهيهات ، أتحسبين أنك تتركين سدى ؟

ألم تكوني نطفة من مني يمنى ثم علقة فخلق فسوى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ فإن كان هذا من إظهارك فما أكفرك وأجهلك !! .

أما تتفكرين أنه مماذا خلقك ؟ من نطفة خلقك فقدرك ، ثم السبيل يسرك ، ثم أماتك فأقبرك ، أفتكذبينه فى قوله : « ثم إذا شاء أنشره » فإن لم تكونى مكذبة ، فمالك لا تأخذين حذرك ؟ ولو أن يهودياً أخبرك فى ألذ أطعمتك بأنه يضرك فى مرضك ، لصبرت عنه وتركته ، وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء عندك أقل تأثيراً من قول يهودى ؟

أما تعلمين يانفسى أن الموت موعدك ، والقبر بيتك والتراب فراشك ، والدود أنيسك ، والفزع الأكبر بين يديك ؟

فاحذرى يا نفسى يوماً آلى الله منه على نفسه أن لا يترك عبداً فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله ، دقيقه وجليله ، سره وعلانيته .

فانظرى يا نفس بأى بدن تقفين بين يدى الله ، وبأى لسان تجيبين ، وأعدى للسؤال جواباً ، وللجواب صواباً ، واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى دار زوال لدار مقامة ، وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود ، اعملى قبل أن تعملى ، اخرجى من الدنيا اختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ، ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون . ورب مغبون لا يشعر .

فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب ، قد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار .

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً ، أو سعيك لها اضطراراً ، وفضلك لها اختياراً ، وطلبك للآخرة ابتداراً . ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى وينهى الناس ولا ينتهى .

ويحك عما بداخلك .. غدا بين يدى مولاك ،

فلا تغربى عنه صفحاً ، ولا تشاغلى عن ذكره ، ولا تدعى العدة بتهيئة الجواب له بصدق ما كنت عليه فى الدنيا ، فلأن يحيىنى بالصدق أرفه لقلبك من أن تحيىنى بالكذب .

والله ماقامت العقول من الصادقين عند جوابه حتى ذهلت ، ثم ردها إليهم لإقامة الحجة على المسخوط عليهم أن يدخلهم فى عذابه وهم له عاذرون ، ولأنفسهم لائمون إذ قدرهم بما ضيعوا من حقه . واجترءوا عليه فى ركوب نهيه ، وليستخرج من الصادقين صدق الجواب فيقبله منهم ، ويؤمنهم ما كانوا به خائفين ، ويسرهم بقبوله منهم عوضاً مما كانوا فى الدنيا من رده مشفقين ، ولكن لابد إذا أرادوا أن يقرءوا كتبهم ، ويبتدئ الله فى مسائلتهم أن تزهقهم الهيبة العظمى ، والمخافة الكبرى .

هذا ابن مريم عليه السلام يقول له الجليل يوم القيامة : ﴿ ... أَأَنت قُلْتَ لِلنَّاس اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ... ﴾[1] . فروى فى الحديث أنه يزول كل معضل منه على حبالة ، ومما يدل على صدق الحديث فى ذلك ، قوله : « إنْ كُنت قلته فقد عَلِمْته » . هذا

---

(١) سورة المـائدة الآية ١١٦ .

جواب ذاهل ، لا يدرى ما يجيب ، قال أبو ميسرة : (لم يدر لعله قاله ، فقال : « إن كنت قلته فقد علمته » ثم بدا إليه عقله ، فقال : « ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به » وهذه جماعة الرسل تقول : « ماذا أجبتم ، فيقولون : لا علم لنا إنك علام الغيوب) .

فيا نفس ويحك .. اعملى على أنه قد رحم شكوالك فيقلك عن بلائك .. أين توارين مادمت فى الدنيا من نظره ، مع ما يعلم من قبائحك التى سلفت منك ؟

وأين تزوغين وأين تحيدين غداً عن العرض عليه ، وتراه جميع مساوئك ، واستماع كلامك بذكر فضائحك؟

ويحك .. فلا تعيشى فى الدنيا إلا بحمده ، ولا تتقلبى فى أحوالك إلا حسرة ، ولا تصبحى ولا تمسى إلا خجلة من توقعك للمتقلب إلى الوقوف بين يديه ، والسؤال منه إليك مع ــ والله ــ أحوالك قبل السؤال منه فى يوم النشور .

فأين قلبك حينئذ يا جاهل ؟ وأين فؤادك ياغافل ؟ لو يقع المنى أن لا تكونى من المخلوقين أو إذا كنت خلقت أن لا تكونى من المبعوثين لكنت إلى ذلك تروحين وإليه تفرعين .

ولكن هيهات قد كتب عليك ما عصيت ، وأحصى عليك ما عصيت ، وأحصى عليك عصيانك فلا ينسى ، وكتب فلا يمحى ، وأنت تعين أن المَلك للأعلى عارف بما كان منك من البلايا ، ثم المصير إليه لا شك فيه ، ثم الأهوال مالا تقوم له السماوات ولا الجبال الصم الشوامخ فى الورى ، والمعرض على ذى العز والكبرياء ، ثم لعل الانصراف من بين يدى الله عز وجل مع الأشقياء إلى العذاب حار فى الوصف ، أن يحد شدته ، وأن يعلم ألمه ، وأن يعلم شدة حرقته للقلوب مع الضم الذى لا يحد والحزن الذى لا يستطاع أن يوصف .

ثم السحرة اجتمعوا ليغلبوا كلمك بسحرهم : إن غلبوه أن يجعلهم أجراً من ملكه ، وزلفة لديه فما منعك ذلك من مقامهم ذلك فى عقب كفرهم وحلفهم بعزة فرعون إلهاً إتخذوه من دونك ، إن عطفت عليهم برحمتك ، وتفضلك عليهم بكرمك ، وتحننت عليهم بجودك فبصرتهم جهلهم وعرفتهم ظلمهم أنفسهم ، وألزمتهم الإقرار بربوبيتك والإخلاص لعظمتك ، وعرفتهم صغر فرعون وضعفه ، وصغرت الدنيا فى قلوبهم ، وهونت عليهم قطع أيديهم وأرجلهم فى مرضاتك ، والصبر على

الإيمان بك ، وهونت لهم رحى جنتك ، وألزمت قلوبهم خوف عذابك ، حتى نطقوا بك فى مقامهم ، كأنهم قد مرت بهم الدهور فى طاعتك ، ودراسة العلم من كتبك .

ثم عرفتهم أن ما مننت عليهم من الإيمان بك لا يتم إلا بك ، وأن ماتهددهم فرعون به من قتلهم وصلبهم لا يستطيعون الصبر عليه إلا بمنك وتوفيقك ، وأيقظتهم إن ناجوك بذلك عما عرفتهم من حاجتهم إلى عفوك ، وتأييدك . فقالوا : «... رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِين»[1] .

فيا من لا إله إلا أنت . ويا قديم الأحد ثم سواه ، وياخالق لا خالق معه ، ويا منفرد الصفات الحسنى لامساوىً له ، ويا غياث المؤمنين قبلى ، وياصاحب السحرة وقد غدوا كفاراً فجرة ، فنالتهم رحمتك . وتحننت عليهم بر أفتك .

* * *

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٦

اطلب الإغاثة بالتوبة من الذنوب

أغثنى ولا تنظر إلى سوء ما عندى ، ولا عظيم جرمى ، كما لا يمنعك عظيم جرم السحرة ، ولا خطايا المذنبين قبلهم وبعدهم ، إذ مننت عليهم بالتوبة ، ومنحتهم العصمة .

فالغوث الغوث .. والفرج الفرج .. فقد طمعتنى بأن تعجل فرجى ، وتفك من الذنوب أسرى .

فعجل الفرج لى ولو ساعة من النهار ، ثم تميتنى قبل أن أبدل وأغير ، وأن تفرج عنى وتنظر إلى فى المهلة ، وتهب لى طيب المعاملة لك . وذلك قرة عينى فى الدنيا والآخرة . فأقرر عينى بطاعتك بدلاً مما قررت وسررت بإيثار الدنيا وأمانيها على محبتك .

فيا أسفى على مامضى من عمرى ، وما فاتنى من التلذذ بمناجاتك .

فأنت المحمود على حسن .....[1]، فلقد طالبت

(١) مكان النقط : مطموس فى الأصل .

فأحسنت المطالبة ، وأنظرت فأحسنت النظرة وأمهلت فلك الحمد كما أنت أهله وكما ينبغى لكرم وجهك وعز جلالك ، وعظيم ربوبيتك؟ .

ألست الذى أهتك سترى وتسترنى ، وأتبغض إليك وإلى خلقك وتحبنى ، وأتباعد منك وتقربنى ، وأتحرى مساخطك وأنت تتحرى ما يرضينى ؟ .

أستعين بنعمتك على معاصيك ، وبإحسانك على تضييع أمرك ، آتى ما تكره شأنه فتسترنى ، أديم تضييع شكرك وتديم بركتك ولطفك ، وأدعوك فتسمع إجابتى ، وتدعونى فأبطىء عن إجابتك ، فبئس العبد أنا لك ونعم المولى أنت لى .

فلذلك انكسر فؤادى ، ونكست المذلة رأسى واستحيت لعظيم جرمى ، ولولا أنى أخاف إن لم أسألك أن تغضب على ما سألتك ، علمتنى أسماءك ، وأمرتنى بدعائك ، فقد عظم فيك طمعى ، وأنجيتنى ، ثم عرفتنى أنه لا إلٰهَ سواك يعيننى ، ولا رب غيرك يفرج عنى ، فأنا مستسلم لعذابك لعظيم جرمى ، طائع غير آيس من رحمتك ، لما عرفته من جودك وكرمك وسعة رحمتك .

فتفضل ولا تكامن ، واعف ولا تجاز ، وفرج ، ولا تؤاخذ ، يا أرحم الراحمين ، ويا أكرم من كل كريم

بل لا كريم ولا جواد ولا راحم بالحقيقة غيرك ، لم تزل ولا تزال كذلك .

القلوب كلها تصوف عن مشيئتك . والنواصى كلها بيدك فى قبضتك : ورحمتك وسعت كل خلقك ، وعفوك غمر كل بريتك ، وعرفتنى نفسك وعلمت ضعفى فى شدة جرأتى عليك .

وها أنذا بين يديك غريق فانقذنى ، واثق ببرك فزدنى ، وحيران متحير فسددنى . ومخذول بعقوبتك لطول تماديه .

فاغمدنى بعفوك وارحمنى برحمتك ورأفتك وتحننك فقد مسانى النكال وغيرت أحوالى العقوبة حتى صرت إلى شر منزلة فى دينى ، أسألك فلا تعطينى ، وأستغيث بك فلا تغيثنى ، وأتضرع إليك فلا ترحمنى ، وأستجير بك فتصرف وجهك عنى ، ولولا ذلك لذقت برد عفوك ، وأثر حسن إجابتك ، وذلك كله قليل ممَّا استوجبه من العقوبة لجرأتى عليك بعد العلم بك والمعرفة بشدة عذابك .

يارب . . فلو كنت تدعنى بذنوبى التى كانت ، وتمنعنى معصيتك من الازدياد كل يوم فى ذنوبى كان أقل لغمى ومحى ذنوبى .

وأُخاطب نفسى بالرَدَّ ولم تمنعنى من الازدياد على بلاى إلّا البقية التى بقيت لى عندك .

لم تخرجنى من ولايتك ؟ ولكن قد أُفرح قلبى و أُنهل فؤادى من ذكر رحمتك .

فيا طول ويلاه ويا تلذذ النار ، أين الهرب وكيف الحيلة ؟ وعزتك لا أقطع أملى فيك ، وأنت أرحم الراحمين إلّا أن يتحول خذلانك عنى ، ولا تسخطنى ، فأنا منتظر لعطفك ور أفتك وتحننك وكرمك .

* * *

« تمت معاتبة النفس بحمد الله . غفر الله لمن قرأه ،
ودعى لكاتبه بالرحمة والمعرفة » .

معاتبه النفس عند الغزالى

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ، وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة للشر ، فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها ، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة ، والعزل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية .

فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشغل أولًا بوعظ نفسك ، أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : « يابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلّا فاستحى منى » ، وقال تعالى : « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ »[1] وسبيلك أن تقبل عليها ، فتقرر عندها جهلها وغباوتها ، وأنها أبدًا

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥ :

تتعزز بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق ، فتقول لها : يا نفس .. ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة ، وأنت أشد الناس غباوة وحمقًا . أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب .

فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ، وعساك اليوم تختطفين — أو غدًا — فأراك ترين الموت بعيدًا ويراه الله قريبًا .

أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما ليس بآت .

أما تعلمين أن الموت يأتى بغتة من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواطأة ، وأنه لا يأتى فى شىء دون شىء ، ولا فى شتاء دون صيف ، ولا فى صيف دون شتاء ، ولا فى نهار دون ليل ، ولا فى ليل دون نهار ، ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ، ولا فى الشباب دون الصبا .

كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ، ثم يفضى إلى الموت .

فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل

قريب ، أما تتدبرين قوله تعالى : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ . مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ . . . »[1] .

ويحك يا نفس . . إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك ، فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك ، فما أشد وقاحتك و أقل حياءك .

ويحك يا نفس . . لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخ من إخوانك بما تكرهينه ، كيف كان غضبك عليه ، ومقتك له ؟ فبأى جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه ، وشديد عقابه .

أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيهات هيهات ، جربى نفسك . إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتسى ساعة فى الشمس ، أو فى بيت الحمام ، أو قربى أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك ، أم تغترين بكرم الله وفضله ، واستغنائه عن طاعته وعبادتك ؟ ! .

فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك ، فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل فى دفعه ؟ ولا تكلينه

---

(1) سورة الأنبياء الآية ١ .

إلى كرم الله تعالى ، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلّا بالدنيار والدرهم .

فما لك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل ، فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز ، أو يسخر عبدًا من عبيده ، فيحمل إليك ، حاجتك من غير سعى منك ولا طلب ، أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها ، وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى .

ويحك يا نفس . . ما أعجب نفاقك ، ودعاويك الباطلة ! ! فإنك تدعين الإيمان بلسانك ، وأثر النفاق ظاهر عليك .

ألم يقل سيدك ومولاك : « وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا . . . »[1] ، وقال فى أمر الآخرة : « وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »[2] . فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة ، وصرفك عن السعى فيها ، فكذبته بأفعالك ، وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ،

---

(١) سورة هود الآية ٦ .

(٢) سورة النجم الآية ٣٩ .

ووكل أمر الآخرة إلى سعيك ، فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ، ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان ، فلم كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار ؟

ويحك يا نفس . . كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ، وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت ، وهيهات أتحسبين أنك تتركين سدى ، ألم تكونى نطفة من منى يمنى ، ثم كنت علقة فخلق فسوى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ، فإن كان هذا من إضمارك ، فما أكفرك وأجهلك ، أما تتفكرين أنه من ماذا خلقك ؟ من نطفة خلقك فقدرك ثم السبيل يسرك ، ثم أماتك فأقبرك ، أفتكذبينه فى قوله : « ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ »[1] ؟ فإن لم تكونى مكذبة ، فما لك لا تأخذين حذرك ؟

ولو أن يهوديًّا أخبرك فى ألذ أطعمتك بأنه يضرك فى مرضك لصبرت عنه ، وتركته ، وجاهدت نفسك فيه : أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات ، وقول الله تعالى فى كتبه المنزلة أقل عندك تأثيرًا من قول يهودى يخبرك عن حدث وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم ؟ والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن فى ثوبك عقربًا لرميت

---

(١) سورة عبس الآية ٢٢ .

ثوبك فى الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان . أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ؟ أم صار حر جهنم ، وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوماً أو أقل منه ؟ ما هذه أفعال العقلاء ، بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك ، وسخروا من عقلك ، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به ، فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ، ولعله يختطفك من غير مهلة ؟ فبما — إذا آمنت — استعجال لأجل ؟

وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة ، أفتظنين أن من يطعم الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك .

أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى الغربة ، فأقام فيها سنين متعطلاً بطالاً ، يعد نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه ، هل تضحكين من عقله وظنه ؟ أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتماداً على كرم الله سبحانه وتعالى ، ثم هب أن الجهد فى آخر العمر نافع :

وأنه موصل إلى الدرجات العلا . فلعل اليوم آخر عمرك ،
فلم لا تشتغلين فيه بذلك ؟ فإن أوحى إليك بالإمهال :
فما المانع من المبادرة ؟ وما الباعث لك على التسويف ؟
هل له سبب إلَّا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من
التعب والمشقة ؟

أفتنظرين يومًا يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ؟
هذا يوم لم يخلقه الله قط ، ولا يخلقه ، فلا تكون الجنة
محفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على
النفوس ، وهذا محال وجوده .

أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك ، وتقولين : غدًا
غدًا ؟ أفقد جاء الغد وصار يومًا ؟ فكيف وجدته ؟ ،
أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يومًا كان له حكم
الأمس ؟ لا ، بل تعجزين عنه اليوم فأنت غدًا عنه أعجز
وأعجز ، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبد فيها
العبد بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها
كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها
إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة
ورسوخًا ، ويزيد القالع ضعفًا ووهنًا ، فما لَا يقدر عليه
فى الشباب لا يقدر عليه قط فى المشيب ، بل من العناء

رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب ، والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان . لم يقبل ذلك .

فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركنين إلى التسويف ، فما بالك تدعين الحكمة ؟ وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ ولعلك تقولين : ما يمنعني عن الاستقامة إلّا حرصي على لذة الشهوات ، وقلة صبري على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك إن كنت صادقة فى ذلك ؟ فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ، ولا مطمع فى ذلك إلّا فى الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها فى مخالفتها ، فرب أكلة تمنع أكلات .

وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره ، وأخبره إن شرب ذلك مرض مرضًا مزمنًا ، وامتنع عليه شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ؟ أم يقضي شهوته فى الحال خوفًا من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ، وجميع عمره ،

بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع عمرك وإن طالت مدته .

وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة ، وأطول مدة ، أو ألم النار فى دركات جهنم ، فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة ، كيف يطيق ألم عذاب الله ؟ ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى أو لحمق جلى .

أما الكفر الخفى : فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب .

وأما الحمق الجلى : فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه ، من غير التفات إلى مكره واستدراجه ، واستغنائه عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك فى ذلك بجميع الحيل ، وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » .

ويحك يا نفس.. لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ، ولا يغرنك بالله الغرور . فانظري لنفسك ، فما أمرك بمهم لغيرك ، ولا تضيعي أوقاتك ، فالأنفاس معدودة ، فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك ، فاغتنمي الصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، والغنى قبل الفقر ، والشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها .

يا نفس.. أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ؟ فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ، ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه ، حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك .

أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردًا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟ كلَّا أن يكون هذا كذلك ، أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة .

أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي . هيهات كما لا يندفع برد الشتاء إلَّا بالجبة والنار وسائر الأسباب ، فلا يندفع حر النار وبردها إلَّا بحصن التوحيد . وخندق

الطاعات ، وإنما كرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار ، وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر ، حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سببًا لاستراحتك ، فطاعاتك ومجاهداتك أيضًا هو مستغن عنها ، وإنما هى طريقك إلى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها ، والله غنى عن العالمين .

ويحك يا نفس . . انزعى عن جهلك ، وقيسى آخرتك بدنياك . فما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة ، وكما بدأنا أول خلق نعيده ، وكما بدأكم تعودون ، وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلًا ولا تحويلًا .

ويحك يا نفس . . ما أراك إلّا ألفت الدنيا وأنست بها ، فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكدين فى نفسك مودتها ، فاحسبى أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك . أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمد بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر إلى مفارقته ؟ أهو معدود من العقلاء أم من الحمق ؟

أما تعلمين أن الدنيا داراً لملك الملوك ، ومالك فيها إلَّا مجاز ، وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ؟ ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وعش ما شئت فإنك ميت » .

ويحك يا نفس .. أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ، ويأنس بها – مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى ؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف ورث الله أرضهم وديارهم لأعدائهم ؟ أما ترين كيف يجمعون ما لا يأكلون ،ويبنون مالا يسكنون ، ويؤملون مالا يدركون؟ يبنى كل واحد قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ، ومقره قبر محفور تحت الأرض ، فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقيناً ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً .

أما تستحين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟ واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى

هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء ، فقيس عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا ، واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء .

يا نفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك !! عجبًا لك !! كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية؟ ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمهما ، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلَّا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك ، وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا ممن قبلك ، فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا ؟ فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى هذا إن كنت ملكًا من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنت لك الرقاب ، وانتظمت لك الأسباب كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك ، بل أمر دارك أفضل عن محلتك ، فإن كنت يا نفس

لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك ، فما لك لا تتركينها ترفعًا عن خسة شركائها وتنزهًا عن كثرة عنائها ، وتوفيًا من سرعة فنائها؟ أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟ ومالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك ، فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويزيدون عليك فى نعيمها وزينتها .

فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء . فما أجهلك ، وأخس همتك ، وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكونى فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين فى جوار رب العالمين أبد الآبدين ، لتكونى فى صنف النعال من جملة الحمق الجاهلين أيامًا قلائل .فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ، فبادرى .

ويحك يا نفس . . فقد أشرفت على الهلاك . واقترب الموت ، وورد النذير ، فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟

ويحك يا نفس . . مالك إلَّا أيام معدودة هى بضاعتك إن اتجرت فيها ، وقد ضيعت أكثرها . فلو بكيت بقية

عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة فى حق نفسك ، فكيف إذا ضيعت البقية وأصدرت على عادتك ؟

أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك ، والدود أنيسك ، والفزع الأكبر بين يديك .

أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك ؟ وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يبرحون مكانهم ما لم يأخذوك معهم .

أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يومًا ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم ؟ وأنت فى أمنيتهم ، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضيعين أيامك فى الغفلة والبطالة .

ويحك يا نفس .. أما تستحين من الخالق ؟ ويحك .. أهو أهون الناظرين ؟ أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل ؟ تدعين إلى الله وأنت فارة ، وتذكرين بالله وأنت ناسية .

أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة ، وأن العذرة لا تطهر غيرها ؟ فلم تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة فى نفسك ؟

ويحك يا نفس.. لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاءٌ إلّا بشؤمك.

ويحك يا نفس.. قد جعلت نفسك حمارًا لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسًا برأس لكان الربح في يديك، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك؟ وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه.

ويحك يا نفس.. ما أغدرك؟

ويحك يا نفس.. ما أوقحك.

ويحك يا نفس.. ما أجهلك وما أجرأك على المعاصي؟

ويحك كم تعقدين فتنقضين؟

ويحك كم تعهدين فتغدرين؟

ويحك يا نفس.. أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها، أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيرًا وبنوا مشيدًا وأملوا بعيدًا فأصبح جمعهم بورًا، وبنيانهم قبورًا. وأملهم غرورًا؟

ويحك يا نفس .. أما لك بهم عبرة ؟ أما لك إليهم نظرة ؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين؟ هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ما أنت إلَّا فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، فابنى على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك .

أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب ، فهل ينفعك حينئذ الندم ، أو يقبل منك الحزن ، أو يرحم منك البكاءُ ؟

والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك ، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص .

ويحك يا نفس .. تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهى معرضة عنك ، فكم من مستقبل يومًا لا يستكمله ؟ وكم من مؤهل لغد لا يبلغه ؟ فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك وأقاربك وجيرانك ، فترين تحسرهم عند الموت ، ثم لا ترجعين عن جهالتك .

فاحذرى أيتها النفس المسكينة يومًا آلى الله فيه على

نفسه أن لا يترك عبدًا أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله ، سره وعلانيته .

فانظرى يا نفس بأى بدن تقفين بين يدى الله ، وبأى لسان تجيبين ، وأعدى للسؤال جوابًا ، وللجواب صوابًا ، واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى دار زوال لدار مقامة ، وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود . اعملى قبل أن لا تعملى ، اخرجى من الدنيا اختيارًا خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ، ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون ، ورب مغبون لا يشعر ، فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويلهو ، يأكل ويشرب ، وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار .

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارًا ، وسعيك لها اضطرارًا ، ورفضك لها اختيارًا ، وطلبك للآخرة ابتدارًا ، ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ويبتغى الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينتهى .

واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خلف ، ومن كان مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر .

فاتعظى يا نفس بهذه الموعظة . واقبلى هذه النصيحة ، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار . وما أراك بها راضية . ولا لهذه الموعظة واعية . فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطنى نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة ، وخلق لها أهلاً ، وخلق النار وخلق لها أهلاً ، فكل ميسر لما خلق له ، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطى من نفسك — والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك — فلا سبيل لك إلى القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء .

فانظرى الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التى ابتليت بها ؟ وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ؟ فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة ، فقد بقى فيك موضع للرجاء .

فواظبى على النياحة والبكاء ، واستعينى بأرحم

الراحمين ، واشتكى إلى أكرم الأكرمين ، وادمنى الاستغاثة ولا تملى طول الشكاية ، لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك . فإن مصيبتك قد عظمت ، وبليتك قد تفاقمت ، وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل ، وراحت عنك العلل . فلا مذهب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا مهرب ، ولا ملجأ ولا منجا إلّا إلى مولاك .

فافزعى إليه بالتضرع ، واخشعى فى تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الذليل . ويغيث الطالب المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ، وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنجح فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم ، والمسئول جواد ، والمستغاث به برّ رءوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض ، والعفو شامل ، وقولى : يا أرحم الراحمين ، يارحيم ، ياحليم ، يا عظيم ، يا كريم أنا المذنب المصرّ الجرئ الذى لا أقلع ، أنا المتمادى الذى لا أستحى ، هذا مقام المتضرع المسكين ، والبائس الفقير ، والضعيف الحقير ، والهالك الغريق فعجل إغاثتى فرجى ، وأرنى آثار رحمتك ، وأذقنى برد عفوك ومغفرتك

وارزقني قوة عظمتك ، يا أرحم الراحمين ، اقتداءً بأبيك آدم عليه السلام ، فقد قال وهب بن منبه : « لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمعة فاطلع الله عز وجل عليه فى اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ما هذا الجهد الذى أرى بك ؟ قال : يارب عظمت مصيبتى وأحاطت بى خطيئتى وأخرجت من ملكوت ربى ، فصرت فى دار الهوان بعد الكرامة ، وفى دار الشقاء بعد السعادة . وفى دار النصب بعد الراحة ، وفى دار البلاء بعد العافية . وفى دار الزوال بعد القرار ، وفى دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء ، فكيف لا أبكى على خطيئتى ؟ فأوحى الله تعالى : يا آدم ألم أصطفك لنفسى وأحللتك دارى ، وخصصتك بكرامتى ، وحذرتك سخطى ؟ ألم أخلقك بيدى ؟ ونفخت فيك من روحى ، وأسجدت لك ملائكتى فعصيت أمرى ، ونسيت عهدى ، وتعرضت لسخطى ، فوعزتى وجلالى لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك يعبدوننى ويسبحوننى ، ثم عصونى لأنزلتهم منازل العاصين » . فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلاثمائة عام .

وكان عبيد الله البجلى كثير البكاء يقول فى بكائه

كل ليلة : « إلٰهى أنا الذى طال عمرى زادت ذنوبى ، أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى ، واعبيداه خطيئة لم تبل ، وصاحبها فى طلب أخرى واعبيداه إن كانت النار لك مقيلًا ومأوى ، واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ ، واعبيداه قضيت حوائج الظالمين ولعل حاجتك لا تقضى » .

وقال منصور بن عمار سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابدًا يناجى ربه وهو يقول : « يارب وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ، ولا عصيتك إذ عصيتك ، وأنا بمكانك جاهل ، ولا لعقوبتك متعرض ، ولا لنظرك مستخف ، ولكن سولت لى نفسى ، وأعانني على ذلك شقوتى ، وغرنى سترك المرخى علىّ ، فعصيتك بجهلى ، وخالفتك بفعلى ، فمن عذابك الآن من يستنقذنى ، أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عنى ، واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدًا إذا قيل للمثقلين : حطوا ، أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط ؟ ويلى كلما كبرت سنى كثرت ذنوبى ، ويلى كلما طال عمرى كثرت معاصىّ فإلى متى أتوب ، وإلى متى أعود ؟ أما آن لى أن أستحى من ربى »

فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم ، وفى معاتبة نفوسهم .

فهرس الكتاب

الموضــوع	الصفحة

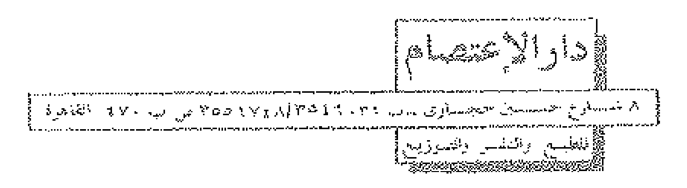
* * *

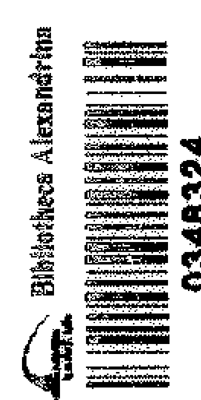
رقم الايداع ٧٧٨٢ / ٨٦

الترقيم الدولى X - ١٤٥ - ١٤٢ - ٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية

٢ ش نشاطي - شبرا مصر


دار الإعتصام
للطبع والنشر والتوزيع


Bibliotheca Alexandrina
0348324

١٥٠ قرشا